
سلسلة: خواطر شاب (٤)
من القلب إلى القلب
نصائح وتوجيهات
لأخي
المهموم
إعداد :
أبي عبد العزيز منير الجزائري
قدم له
فضيلة الشيخ الدكتور:
مسعد بن مساعد الحسيني
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية
بالمدينة النبوية
دار الفرقان
للنشر والتوزيع

من القلب إلى القلب

نصائح وتوجيهات لأخي المهمـــوم

الطبعة الثانية

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

سلسلة خواطر شاب: (٤)

من القلب إلى القلب

نصائح وتوجيهات لأخي المهمـــوم

إعداد

أبي عبد العزيز منير الجزائري

تقديم فضيلة الشيخ الدكتور

مسعد بن مساعد الحسيني

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية




بسم الله الرحمن الرحيم

خَاطِرَةٌ: يَا الله..

أَخِي الحَبِيب المَهْمُوم المَغْمُوم:

إِذَا نَظَرْتَ خَلْفكَ فَكَانَ مَاضِيكَ يُؤْلِم...

وَنَظَرْتَ أَمَامَكَ فَوَجَدْتَ مُسْتَقْبَلَكَ مَجْهُولًا وَهُوَ مُظْلِم..

وَنَظَرْتَ عَنْ يَمِينِكَ وَجدتَ الدَّيْنَ وَالمَغْرَم...

وَنَظَرْتَ عَنْ الشِّمالِ وَجدتَ المَعَاصِي وَالمَأْثَم..

فَارْفَعْ رَأْسَكَ إِلَى السَّمَاء بِالدُّعَاء ..تَجِدُ رَبًّا رَحِيمًا لَا يَظْلِم..

مُحِبُّكُم فِي الله

ابو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

تقديم فضيلة الشيخ الدكتور مسعد بن مساعد الحسيني
عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

تقديم وتقريظ:

فضيلة الشيخ الدكتور

مسعد بن مساعد الحسيني

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه وبعد:

فقد أهداني أخي الحبيب الشيخ منير الجزائري (أبو عبد العزيز) مجموعة من مؤلفاته من تآليف وانتقاءات فسرني ما اشتملت عليه من مواضيع سديدة ومواضيع مفيدة، حرص فيها على النهل من علوم الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

فإني إذ أشكره على إتحافه وجهوده الخيرة لأوصيه بتقوى الله تعالى والاستمرار على هذا العمل الرشيد والسعي الحميد والرأي السديد متحليا بالإخلاص متزينا بالعلم غير آبه بما يواجه من مصاعب في ذات الله تعالى ولا مستعجل ثمار غرسه المبارك.

سائلا الله له الثبات على الحق والمزيد من التوفيق والتسديد

أخوكم المحب

قاله وكتبه

د. مسعد بن مساعد الحسيني

عضو هيئة التدريس بالجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

١٤٣٥/٦/٥ هـ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله العَلِيِّ الكَبِير، المُتَفَرِّد بِالمُلْكِ وَالخَلْقِ وَالتَّدْبِير، أَحْمَدُه حَمْدًا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير، وَأَشْكُرُه شُكْرَ مُعْتَرِفٍ بِالعَجْزِ عَنِ شُكْرِ نَعْمَائِه وَالتَّقْصِير.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ مُعِيد النِّعَم، مُذْهِب النِّقَم، بَارِئ النَّسَم، وَخَالِق الخَلْقِ مِنْ عَدَم، وَشافِي الأَمْرَاضِ وَالسَّقَم، وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ الله وَرَسُولُه المَبْعُوث إِلَى العَرَبِ والعَجَم، صَلَّى الله عَلَيْه وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِه أُولِي الفَضْلِ والكَرَم، والتَّابِعِين وَمَنْ تَبِعَهُم بِإِحْسَان مَا تَعاقَبَتْ الأَنْوَار وَالظُّلَم، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْد:

إخواني في الله.. إنِّي أُحبُّكم في الله.

هَذِهِ كَلِمَاتٌ مِنَ القَلْب لَعَلَّها تَصِلُ إِلَى القَلْب، وَنِدَاءُ الرُّوح لِلرُّوح، يَسْرِي فِي الأَعْمَاقِ بَيْنَ الجَوَانِح..

حَدِيثٌ بَذَلْتُ فِيهِ نُصْحِي.. ومَزَجْتُ مَعَهُ رُوحِي..

حَــــدِيثُ الـــرُّوحِ لِـــلأَرْوَاحِ يَسْـــرِي

وَتُدْرِكُــــهُ القُلُــــوبُ بِــــلَا عَنَــــاءٍ

لِأَنَّهُ يَكُونُ أَنْفَع، وَفِي الفُؤَادِ أَوْقَع.. كَلَامٌ مِنْ أخٍ إِلَى أَخِيه.. مِنْ صَدِيقٍ إِلَى صَدِيقِه..

فَاجْعَلْهَا كَلِمَات صَدِيقٍ حَمِيم، وَأَخٍ رَحِيم..

عِبَارَات مِنْ حَبِيبٍ قَرِيب إِلَى خَلِيلٍ لَبِيب..

إِخْوَانِي فِي الله: اعْلَمُوا رَحِمَكُمْ الله أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ امْتِحَانٍ وَابْتِلَاء، وَكَبَدٍ وَعَنَاء، تَمُوجُ بِالمِحَن وتَزْخَرُ بِالفِتَن، تَعُمُّها البَلَايَا وتَحُفُّها الرَّزَايا.

الله أَكْبَر! مَا أَكْثَر أَهْلَ البَلَاء فِي دَارِ الابْتِلَاء، وَصَدَق الله القَائِل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البَلَد].

«أَوَّلُ مَا يُكَابِدُ قَطْعَ سُرَّتِهِ، ثُمَّ إذا قُمِطَ قِمَاطًا، وَشُدَّ رِبَاطًا، يُكَابِدُ الضِّيقَ وَالتَّعَبَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الِارْتِضَاعَ، وَلَوْ فَاتَهُ لَضَاعَ، ثُمَّ يُكَابِدُ نَبْتَ أَسْنَانِهِ، وَتَحَرُّكَ لِسَانِهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْفِطَامَ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مِنَ اللِّطَامِ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْخِتَانَ، وَالْأَوْجَاعَ وَالْأَحْزَانَ، ثُمَّ يُكَابِدُ الْمُعَلِّمَ وَصَوْلَتَهُ، وَالْمُؤَدِّبَ وَسِيَاسَتَهُ، وَالْأُسْتَاذَ وَهَيْبَتَهُ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ التَّزْوِيجِ وَالتَّعْجِيلَ فِيهِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الْأَوْلَادِ، وَالْخَدَمِ وَالْأَجْنَادِ، ثُمَّ يُكَابِدُ شُغْلَ الدُّورِ، وَبِنَاءِ الْقُصُورِ، ثُمَّ الْكِبَرَ وَالْهَرَمَ، وَضَعْفَ الرُّكْبَةِ وَالْقَدَمِ، فِي مَصَائِبَ يَكْثُرُ تَعْدَادُهَا، وَنَوَائِبَ يَطُولُ إِيرَادُهَا، مِنْ صُدَاعِ الرَّأْسِ، وَوَجَعِ الْأَضْرَاسِ، وَرَمَدِ الْعَيْنِ، وَغَمِّ الدَّيْنِ، وَوَجَعِ السِّنِّ، وَأَلَمِ الْأُذُنِ. وَيُكَابِدُ مِحَنًا فِي الْمَالِ وَالنَّفْسِ، مِثْلَ الضَّرْبِ وَالْحَبْسِ، وَلَا يَمْضِي عَلَيْهِ يَوْمٌ إِلَّا يُقَاسِي فِيهِ شِدَّةً، وَلَا يُكَابِدُ إِلَّا مَشَقَّةً، ثُمَّ المَوْتُ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّه، ثُمَّ مَسْأَلَةُ الْمَلَكِ، وَضَغْطَةَ الْقَبْرِ

وَظُلْمَتَهُ، ثُمَّ الْبَعْثَ وَالْعَرْضَ عَلَى اللهِ، إِلَى أَنْ يَسْتَقِرَّ بِهِ الْقَرَارُ، إِمَّا فِي الْجَنَّةِ وَإِمَّا فِي النَّارِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِي كَبَدٍ، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ إِلَيْهِ لَمَّا اخْتَارَ هَذِهِ الشَّدَائِدَ»[1].

فَهَـــذَا نِدَاء إِلَى أَهْلِ البَلَاء:

إِلَى كُلِّ مَنْ ابْتُلِيَ فِي مَالِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ بَدَنِهِ..

إِلَى كُلِّ مَنْ أَصَابَهُ الهَمّ، وَحَلَّ بِه الغَمّ..

إِلَى مَنْ فُقَدَ لَهُ حَبِيب أَوْ مَاتَ عَنْهُ قَرِيب..

إِلَى مَنْ كَانَ مَيْسُورَ الحَال.. فَقَدَ المَال.. فَتَخَلَّى عَنْه الرِّجَال..

إِلَى مَنْ كَانَ وَلَا يَزَال يَحْلُم بِبَيْتٍ يَجْمَعُ شَمْل أَهْلِه وَوَلَدِه، بَعْدَمَا حَلَّ بِهِمْ الشِّقَاق وَالفِرَاق..

إِلَى مَنْ تَأَخَّر عَنْهَا قِطَارُ الزَّوَاج وَلَا زَالَت تَنْتَظِرُ الزَّوْجَ الصَّالِح وَالرَّفِيق النَّاصِح..

إِلَى مَنْ اشْتَاقَتْ نَفْسُه وَتَمَنَّى قَلْبُه سَمَاعَ كَلِمَة «بَابَا» وَ«مَامَا» وَانْتَظَرَ السِّنِين والسِّنين..

إِلَى مَنْ كَانَ مِنَ الأَصِحَّاء وَهُوَ الآن عَلَى الأَسِرَّة البَيْضَاء يَنْتَظِرُ الدَّوَاء والشِّفَاء..

---

(١) «الجَامِعُ لِأَحْكَامِ القُرْآن» (٢٠/ ٦٣).

إِلَى كُلِّ هَؤُلَاء مِنْ أَهْلِ البَلَاء.. إِلَى كُلِّ أَخَوَاتِي وَإِخْوَانِي أُوَجِّهُ لَهُمْ هَذَا النِّدَاء الحَانِي... لَعَلَّهُم يَجِدُونَ فِيهِ مَا يُصَبِّرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ بِإِذْنِ الله.

فَإِنَّ مِمَّا يُورِثُ الصَّبْرَ وَاليَقِين، وَالتَّسْلِيم بِقَضَاءِ رَبِّ العَالَمِين، وَالرِّضَا عِنْدَ التَعَرُّضِ لِلْأَزَمَات وَحُلُولِ المُصِيبَات، النَّظَر وَالتَأَمُّل فِي النُّصُوصِ الشَّرْعِيَّة (آيَات قُرْآنِيَّة وَأَحَادِيث نَبوِيَّة)، فَهِي كَثِيرَةٌ لَا تُعَدُّ وَلَا تُحْصَى، وَلَا تُحَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى.

فِي نَفْسِ الوَقْتِ نَجِدُ أَنَّ الحَيَاةَ المَادِيَّة وَقَفَتْ عَاجِزَةً عَلَى تَلْبِيَة حَاجِيَات مَنْ عَظَّمُوها وَرَفَعُوها، بَلْ وَعَبَدُوهَا حَتَّى وَصَل الحَالُ بِالكَثِير مِنْهُم إِلَى وَضْعِ حَدٍّ لِحَيَاتِهِ بِالانْتِحَار، بَعْدَمَا وَصَلُوا إِلَى حَالَةِ الانْهِيَار، نَسْأَل الله السَّلَامَةَ وَالعَافِيَة.

أَمَّا مَنْ رَضِيَ بالله رَبًّا، وَبِالإِسْلام دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيًّا فَهُم السُّعَدَاء وَلَوْ كَانُوا مِنَ الفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاء؛ بَلْ جُمِعَتْ لَهُمْ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالآخِرَة، جَعَلَنِي الله وَإِيَّاكُمْ مِنْهُمْ.

كَمَا لَا يَفُوتُنِي أَنْ أَتَقَدَّمَ بِالشُّكْرِ الجَزِيل لِصَاحِبِ الفَضِيلَةِ
شَيْخِنَا الدُّكْتُور مَسْعَد بْنِ مُسَاعِد الحُسَيْنِي حَفِظَهُ الله عَلَى نَصَائِحِهِ الذَّهَبِيَّةِ،
وَكَلِمَاتِهِ التَّشْجِيعِيَّة.

مُحِبُّكُم فِي الله

أبو عبد العزيز منير الجزائري

abou-abdelaziz@hotmail.fr

مَدْخَلٌ

إِنَّ الهُمُومَ مِنْ أَعْظَمِ المَكَارِهِ الَّتِي تُصِيبُ المُسْلِمَ فِي الحَيَاة، فَتُضَيِّقُ عَيْشَهُ، وتَخْنُقُ نَفْسَهُ، وتُطَأْطِئُ رَأْسَهُ، وَتَنْكُثُ مِنْهُ قُوَّتَهُ وَنَشَاطَهُ وَبَأْسَهُ.

فَهِيَ جَالِبَةُ الأَحْزَان، مَا حَلَّتْ بِبَيْتٍ إِلَّا أَذْهَبَتْ مِنْهُ السُّرُور وَالفَرَح، وَكَسَتْهُ الكَآبَةَ وَالتَّرَح، مَنْ ابْتُلِيَ بِهَا فَقَدْ ابْتُلِيَ بِعَظِيم، وَمَنْ أُعْدِيَ بِهَا فَقَدْ نَالَهُ وَبَاءٌ جَسِيم.

فيا الله كَمْ أَرَّقَتْ مِن نَّائِم، وَأَتْلَفَتْ مِنْ عَاقِلٍ فَاهِم، وَأَجْهَلَتْ مِنْ حَكِيمٍ عَالِم، وَأَضْعَفَتْ مِنْ قَوِيٍّ حَازِم..

تُذْهِبُ نَضَارَةَ الوَجْهِ.. وَحَلَاوَةَ البَسْمَة.. وَنَقَاوَة النَّظْرَة، وَتُبْدِلُها سَوَادًا وَعُبُوسًا وَحَسْرَة[1].

«إِنَّ العَبْدَ فِي هَذِهِ الحَيَاة قَدْ يُصَابُ بِآلَامٍ مُتَنَوِّعَة، وَقَدْ يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ وَارِدَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ تُؤْرِقُ قَلْبَه وَتُؤْلِمُ نَفْسَه، وتَجْلِبُ لَهُ الكَدَرَ وَالضِّيقَ، فَإِنْ كَانَ هَذَا الأَلَمُ الَّذِي يُصِيبُ القَلْبَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورٍ مَاضِيَةٍ فَهُوَ حُزْنٌ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورٍ

---

(١) «إِلَى مَنْ أَسَرَتْهُ الهُمُوم» (ص٣).

مُسْتَقْبَلَةٍ فَهُوَ هَمٌّ، وَإِنْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِوَاقِعِ الإِنْسَانِ وَحَاضِرِهِ فَهُوَ غَمٌّ»[١].

هَلْ فَكَّرْتَ أَخِي مَا هِيَ أَسْبَابُ هَمِّك وَغَمِّك؟

فَالكَثِيرُ مِنَ الهُمُومِ وَالغُمُومِ إِنَّمَا هِيَ مِنْ شُؤْمِ المَعَاصِي وَالذُّنُوب، وَقَسْوَة القُلوب.

فَالقُلُوبُ تَتَفَاوَتُ بِقَدْرِ قُرْبِهَا أَوْ بُعْدِهَا عَنْ رَبِّهَا:

«قَلْبٌ هُوَ عَرْشُ الرَّحْمَن فَفِيهِ النُّورُ وَالحَيَاةُ، وَالفَرَحُ وَالسُّرُورُ، وَالبَهْجَةُ وَذَخَائِرُ الخَيْرِ، وَقَلْبٌ هَوَ عَرْشُ الشَّيْطَان فَهُنَاكَ **الضِّيقُ وَالظُّلْمَةُ وَالمَوْتُ وَالحُزْنُ وَالغَمُّ وَالهَمُّ**، فَهُوَ حَزِينٌ عَلَى مَا مَضَى، مَهْمُومٌ بِمَا يَسْتَقْبِل، مَغْمُومٌ فِي الحَال»[٢].

فَالكَثِيرُ مِنْ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ يَعَانُونَ هَذَا الضِّيق فِي صُدُورِهِمْ إِنَّمَا بِسَبَبِ بُعْدِهِمْ عَن رَّبِّهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ فِي جَنْبِ خَالِقِهِمْ القَائِل: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾ [طه].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَمَنْ كَانَتْ الغَفْلَةُ أَغْلَبَ أَوْقَاتِهِ، كَانَ الصَّدَأُ مُتَرَاكِبًا عَلَى قَلْبِهِ، وَصَدَأُهُ بِحَسَبِ غَفْلَتِهِ، وَإِذَا صُدِئَ القَلْبُ لَمْ تَنْطَبِعْ فِيهِ صُوَرُ المَعْلُومَات عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ، فَيَرَى البَاطِلَ فِي صُورَةِ الحَقِّ، وَالحَقَّ فِي صُورَةِ البَاطِل؛ لِأَنَّهُ لَمَّا تَرَاكَمَ

(١) «فِقْهُ الأَدْعِيَةِ وَالأَذْكَار» (٣/ ١٨٥).

(٢) «الفَوَائِدُ» (ص٢٧).

عَلَيْهِ الصَّدَأ أَظْلَمَ فَلَمْ تَظْهَرْ فِيهِ صُورَةُ الحَقَائِقِ كَمَا هِيَ عَلَيْهِ، فَإِذَا تَرَاكَمَ عَلَيْهِ الصَّدَأ وَاسْوَدَّ وَرَكِبَهُ الرَّان فَسَدَ تَصَوُّرُهُ وَإِدْرَاكُه، فَلَا يَقْبَلُ حَقًّا وَلَا يُنْكِرُ بَاطِلًا وَهَذَا أَعْظَمُ عُقُوبَاتِ القَلْبِ.

وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الغَفْلَةِ وَاتِّبَاعِ الهَوَى فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ نُورَ القَلْبِ وَيَعْمِيَانِ بَصَرَهُ». [١]

«وَثَمْرَةُ هَذَا الكَلَام النَّفِيس أَنَّ الغَافِلَ عَنْ ذِكْرِ الله جل وعلا أَكْثَرُ النَّاسِ **عُرْضَةً لِلْهُمُومِ والغُمُومِ وَالأَحْزَان**؛ فَمَنَاعَتُهُ أَضْعَفُ المَنَاعَات عَلَى الإِطْلَاق، لِأَنَّهُ لَمْ يُحَصِّنْ نَفْسَهُ بِذِكْرِ الله جَلَّ وَعَلَا، فَأَمْكَنَ مِنْهُ الشَّيْطَان فَهُوَ يَقْهَرُهُ بِالوَسَاوِسِ وَالأَوْهَامِ وَالتَّخْوِيفِ وَالتَّشْوِيشِ، فَيَنْفُثُ فِيهِ الأَحْزَان وَالآلَام.

فَالغَافِلُ عَنِ الله، وَعَنْ ذِكْرِهِ وَفَرَائِضِهِ وَوَاجِبَاتِهِ مَهْمُومٌ بِمُجَرَّدِ غَفْلَتِهِ ثُمَّ هُوَ أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ قَلَّ أَوْ كَثُرَ، تَجِدُهُ أَجْزَعَ النَّاسِ وَأَضْعَفَهُمْ صَبْرًا وَأَقَلَّهُمْ جَلَدًا وَعَزْمًا». [٢]

وَتَذَكَّرْ كَذَلِكَ أَخِي الحَبِيب دَائِمًا وَأَبَدًا أَنَّ العَدِيدَ مِنَ الهُمُومِ وَالغُمُومِ وَالأَحْزَانِ إِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيم كَمَا قَالَ رَبُّنَا الرَّحْمَن الرَّحِيم فِي كِتَابِهِ الكَرِيم: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ

---

(١) «الوَابِلُ الصَّيِّب» (ص٥٦).

(٢) «إِلَى مَنْ أَسَرَتْهُ الهُمُوم» (ص٧).

ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾ [المجادلة].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الحُزْنُ مُوَقِّفٌ غَيْرُ مُسَيِّرٍ وَلَا مَصْلَحَةَ فِيهِ لِلْقَلْبِ، **وَأَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الشَّيْطَانِ أَنْ يَحْزُنَ العَبْدُ لِيَقْطَعَهُ عَنْ سَيْرِهِ وَيُوقِفَهُ عَنْ سُلُوكِه**، قَالَ الله تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ الثَّلَاثَةَ أَنْ يَتَنَاجَى اثْنَان مِنْهُمْ دُونَ الثَّالِثِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُحْزِنُهُ، فَالحُزْنُ لَيْسَ بِمَطْلُوبٍ وَلَا مَقْصُودٍ وَلَا فِيهِ فَائِدَةٌ، وَقَدْ اسْتَعَاذَ مِنْهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ وَالحَزَن»[1] فَهُوَ قَرِينُ الهَمِّ»[2].

إِنَّ مِنَ الخَطَأِ البَيِّنِ وَالزَّلَلِ الوَاضِحِ مَا وَقَعَ فِيهِ الكَثِيرُ مِنْ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ غَرِقُوا فِي بِحَارِ الشَّهَوَات، وَلُجَجِ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَات، لَمَّا الْتَجَؤُوا لِلْمُخَدِّرَات وَالمُسْكِرَات، بِحُجَّةِ نِسْيَانِ هُمُومِهِمْ وَمَشَاكِلِهِمْ، فَلَا هُمُومًا نَسَوْهَا وَلَا سَعَادَةً حَصَّلُوهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ وَالاطْمِئْنَان نِعْمَةٌ مِنَ الرَّحِيم المَنَّان، وَالنِّعَمُ لَا تُنَالُ بِمَعْصِيَةِ الرَّحْمَن وَطَاعَةِ الشَّيْطَان، بَلْ العَكْس:

إِذَا كُنْـــتَ فِــــي نِعْمَـــةٍ فَارْعَهَـــا
فَـــإِنَّ الْمَعَاصِـــيَ تُزِيـــلُ الـــنِّعَمْ

(١) رواه البخاري (٢٨٩٣).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (١/ ٥٠٦).

وَحَـــــامِ عَلَيْهَــــــا بِشُــــــكْرِ الْإِلَـــــهِ

فَـــــإِنَّ الْإِلَــــــهَ سَــــــرِيعُ الـــــنِّقَمْ

وَهَذِهِ وَقَفَاتٌ يَسِيرَات خُذْهَا بِعَيْنِ الاعْتِبَار، مَتَوَكِّلًا عَلَى العَزِيزِ الغَفَّار، وَسَتَرَى بِإِذْنِ الله أَخِي المَهْمُوم الثَّمَرَاتِ اليَانِعَة وَالنَّتَائِجِ الرَّائِعَة بِإِذْنِ الله، فَعِشْ مَعَهَا وَبِهَا وَسَتَظْفَر بِحَلَاوَةِ آثَارِهَا:



النَّصِيحَةُ الأُولَى: التَّوْبَةُ النَّصُوحُ

لَا رَيْبَ أَنَّ الوُقُوفَ عَلَى سِرِّ السَّعَادَةِ وَمَعْنَاهَا الحَقِيقِي مِنْ أَعْظَمِ الدَّوَافِعِ لِلتَّوْبَةِ النَّصُوح، وَالإِقْبَالِ عَلَى الله ﷻ ذَلِكَ أَنَّ مِنْ أَعْظَم الدَّوَافِع لِفِعْلِ المَعَاصِي وَتَرْكِ الطَّاعَات هُوَ البَحْثُ عَنِ السَّعَادَة والرَّاحة؛ فَالعَالَمُ بِأَسْرِه مُؤْمِنه وَكَافِره يَبْتَغِي السَّعَادَة وَيَرُوم طَرْدَ الهَمِّ وَالقَلَق.

وَلَكِنْ مَا أَقَلَّ مَنْ يَهْتَدِي إِلَى ذَلِكَ السَّبِيل، وَمَا أَكْثَرَ مَنْ يَحِيدُ عَنْهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً.

كُــلُّ مَــنْ فِي الوُجُــودِ يَطْلُــبُ صَــيْدًا
غَيْــــرَ أَنَّ الشِّـــــبَاكَ مُخْتَلِفَـــــاتُ

فَأَكْثَرُ النَّاسِ عَشِيَتْ بَصَائِرُهُمْ أَوْ عَمِيَتْ عَنْ حَقِيقَةِ السَّعَادَةِ وَسِرِّهَا الأَعْظَم[١].

«فَحَقِيقَةُ التَّوْبَةِ هِيَ النَّدَمُ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي المَاضِي، وَالإِقْلَاعِ عَنْهُ فِي الحَال، وَالعَزْمِ عَلَى أَنْ لَا يُعَاوِدَهُ فِي المُسْتَقْبَل.

وَالثَّلَاثَةُ تَجْتَمِعُ فِي الوَقْتِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ التَّوْبَة؛ فَإِنَّهُ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ يَنْدَمُ وَيُقْلِعُ وَيَعْزِمُ، فَحِينَئِذٍ يَرْجِعُ إِلَى العُبُودِيَّةِ الَّتِي خُلِقَ لَهَا وَهَذَا الرُّجُوعُ هُوَ حَقِيقَةُ التَّوْبَة»[٢].

---

(١) «التَّوْبَةُ وَظِيفَةُ العُمر» (ص٢٣١).

(٢) «مدَارِجُ السَّالِكِين» (١/ ١٨٢).

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرَّعد].

قَالَ العَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحمَنِ السَّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«إِذَا غَيَّرَ العِبَادُ مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ المَعْصِيَةِ، فَانْتَقَلُوا إِلَى طَاعَةِ الله، غَيَّرَ الله عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الشَّقَاءِ إِلَى الخَيْرِ **وَالسُّرُورِ وَالغِبْطَةِ** وَالرَّحْمَةِ».[1]

نَعَمْ عِبَادَ الله صَدَق رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فَاجْلِسْ مَعَ التَّائِبِينَ وَاسْأَلْهُمْ عَنْ أَسْعَدِ اللَّحَظَات، وَأَفْضَلِ الأَوْقَات، فَسَيَقُولُونَ بِلِسَانٍ وَاحِد: إِنَّهَا سَاعَةُ التَّوْبَة.. وَلَحْظَةُ الأَوْبَة.

يَوْم أَنْ يَنْطَرِحَ العَبْدُ التَّائِبُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ وَمَوْلَاه.. يَنَاجِيه وَيُنَادِيه رَبَّاه رَبَّاه.. وَهُوَ فِي رِقَّةٍ وَانْكِسَار لِلْعَزِيزِ الغَفَّار، يُؤَمِّلُ العَفْوَ وَالصَّفْحَ والمَغْفِرَة.. فَتَخْرُجُ دَمْعَتُه.. وَهُوَ يَشْعُر بِحَرِّهَا مُتَفَائِلًا بِغَسْلِ ذَنْبِه، وَتَفْرِيجِ كَرْبِه، وَإِصْلَاحِ قَلْبِه، وَقُرْبِهِ مِنْ رَبِّه.

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّما
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُه
بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

---

(١) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص٤١٤).

فَمَـا زِلْـتَ ذَا عَفْـوٍ عَـنْ الـذَّنْب لَـمْ تَـزَلْ
تَجُـــودُ وَتَعْفُـــو مِنَّـــةً وَتَكَرُّمَـــا

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات]

«الفِرَارُ مِمَّا يَكْرَهُهُ الله ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، إِلَى مَا يُحِبُّه ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فِرَارٌ مِنَ الجَهْلِ إِلَى العِلْم، وَمَنِ الكُفْرِ إِلَى الإِيمَان، وَمِنَ المَعْصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَمِنَ الغَفْلَةِ إِلَى ذِكْرِ الله، فَمَنْ اسْتَكْمَلَ هَذِهِ الأُمُور فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الدِّينَ كُلَّهُ وَقَدْ زَالَ عَنْهُ المَرْهُوب، وَحَصَلَ لَهُ نِهَايَةُ المُرَادِ وَالمَطْلُوب.

وَسَمَّى الله الرُّجُوعَ إِلَيْهِ فِرَارًا لِأَنَّ فِي الرُّجُوعِ لِغَيْرِه، أَنْوَاع المَخَاوِف وَالمَكَارِه، وَفِي الرُّجُوعِ إِلَيْه أَنْوَاع المَحَابِّ وَالأَمْن، **وَالسُّرُورِ وَالسَّعَادَةِ وَالفَوْزِ**، فَيَفِرُّ العَبْدُ مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَرِه، إِلَى قَضَائِهِ وَقَدَرِه، وَكُلُّ مَنْ خِفْتَ مِنْهُ فَرَرتَ مِنْهُ؛ إِلاَّ الله تعالى، فَإِنَّهُ بِحَسَبِ الخَوْفِ مِنْهُ يَكُونُ الفِرَارُ إِلَيْهِ».[1]

مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ:

سَارِعْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالإِنَابَةِ

«فَإِذَا رَأَى المِسْكِينُ الَّذِي عَمِلَ السُّوءَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ الكُرُوب، وَتَرَادَفَتْ عَلَيْهِ الهُمُومُ وَالخُطُوب، وَاسْوَدَّ وَجْهُهُ مِنْ ظُلُمَاتِ الذُّنُوب، وَقَدْ غَضِبَ عَلَيْهِ عَلَّامُ الغُيُوب، وَرَأَى الَّذِين **تَابُوا** مِنْ إِخْوَانِهِ، وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَجِيرَانِهِ، قَدْ فَازُوا

(١) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص٨١١).

بِالمُلْكِ الكَبِير، وَالحِسَابِ اليَسِير، وَلِبَاسِ السُّنْدُسِ وَالحَرِير، وَالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِ السَّمِيعِ البَصِير، وَرَأَى نَفْسَهُ قَدْ خَسِرَ وَخَاب وَحُرِمَ الثَّوَاب، وَنُوقِشَ الحِسَاب وَحُجِبَ عَنْ رَبِّ الأَرْبَاب، وَصَارَ إِلَى أَلِيم العَذَاب:

يَوَدُّ لَوْ كَانَ **تَائِبًا** وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الرَّحْمَةِ خَائِبًا.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ السُّوءُ عَنْهُ بَعِيدًا وَلَمْ يَكُنْ حَاضِرًا عَتِيدًا، وَلَمْ يَكُنِ العَذَابُ عَلَيْهِ شَدِيدًا.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ **التَائِبِين** وَلَم يَكُنْ مِنَ المَحْرُومِين.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الآمِنِين وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الخَائِفِين.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الطَّائِعِين وَلَمْ يَكُنْ مِنَ العَاصِين.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ المُحْسِنِين وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الظَّالِمِين.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجِنَان وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ النِيرَان.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ أَهْلِ الثَّوَاب وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ العِقَاب.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ أَهْلِ النَّعِيم وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الجَحِيم.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ الأَوْلِيَاء وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الأَشْقِيَاء.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ أَهْلِ الوِفَاق وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ النِّفَاق.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ مِنَ أَهْلِ الفَوْزِ بِالجَنَّة وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ العَذَابِ وَالمِحْنَة.

يَوَدُّ لَوْ كَانَ سَعِيدًا رَشِيدًا وَلَمْ يَكُنْ عَنِ الله بَعِيدًا.

لَا أَبْعَدَنَا الله وَإِيَّاكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَقَرَّبَنَا وَإِيَّاكُمْ بِالفَوْزِ بِجَنَّتِه»[١].

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «كَثْرَةُ الذُّنُوب مُفْسِدَةٌ للقُلُوب».



(١) «بُسْتَانُ الوَاعِظِين» (ص٩٤).

النَّصِيحَةُ الثَّانِيَةُ: قِرَاءَةُ القُرْآنِ الكَرِيم

كِتَابُ الله: فِيهِ نَبَأُ مَنْ قَبْلَنَا، وَخَبَرُ مَنْ بَعْدَنَا، وَحُكْمُ مَا بَيْنَنَا، هُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالهَزْل، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَه الله، وَمَنْ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِه أَضَلَّهُ الله، وَهُوَ حَبْلُ الله المَتِين، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيم، وَهُوَ الصِّرَاط المُسْتَقِيم، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاء، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاء، وَلَا تَلْتَبِسُ مِنْهُ الأَلْسُن، وَلَا يَخْلَقُ مِنَ الرَدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.. مَنْ قَالَ بِهِ صَدَق، وَمَنْ حَكَمِ بِهِ عَدَل، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِر، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم[1].

«هُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيم الَّذِي لَاتَمِيلُ بِهِ الآرَاء، وَالذِّكْرُ الحَكِيم الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاء، وَالنُّزُلُ الكَرِيم الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاء، لَا تُفْنَى عَجِائِبُهُ وَلَا تُقْلَع سَحَائِبُه، وَلَا تَنْقَضِي آيَاتُهُ وَلَا تَخْتَلِفُ دَلَالَاتُهُ، كُلَّمَا ازْدَادَتْ البَصَائِرُ فِيهِ تَأَمُّلًا وَتَفْكِيرًا، زَادَهَا هِدَايَةً وَتَبْصِيرًا، وَكُلَّمَا بَجَسَتْ مَعِينُهُ فُجِّرَ لَهَا يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ تَفْجِيرًا، فَهُوَ نُورُ البَصَائِرِ مِنْ عَمَاهَا، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ مِنْ أَدْوَائِهَا وَجَوَاهَا، وَحَيَاةُ القُلُوب، وَلَذَّةُ النُّفُوس، وَرِيَاضُ القُلُوب، وَحَادِي الأَرْوَاح إِلَى بِلَادِ الأَفْرَاح،

(١) انْظُرْ: «السِّلْسِلَة الضَّعِيفَة» (١٣/ ٨٨٣).

وَالمُنَادِي بِالمَسَاءِ وَالصَّبَاح يَا أَهْلَ الفَلَاح حَيَّ عَلَى الفَلَاح..»(١).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«سُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ **لِأَدْوَاءِ الصُّدُورِ شَافِيًا**، وَإِلَى الإِيمَانِ وَحَقَائِقِهِ مُنَادِيًا، وَإِلَى الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ دَاعِيًا، وَإِلَى الطَّرِيقِ الرَّشَادِ هَادِيًا، لَقَدْ أَسْمَعَ مُنَادِي الإِيمَانِ لَوْ صَادَفَ آذَانًا وَاعِيَة، وَشَفَتْ مَوَاعِظُ القُرْآنِ لَوْ وَافَقَتْ قُلُوبًا خَالِيَة، وَلَكِنْ عَصَفَتْ عَلَى القُلُوبِ أَهْوِيَة الشُّبُهَات وَالشَّهَوَات، فَأَطْفَأَتْ مَصَابِيحَها، وَتَمَكَّنَتْ مِنْهَا أَيْدِي الغَفْلَة وَالجَهَالَة فَأَغْلَقَتْ أَبْوَابَ رُشْدِهَا وَأَضَاعَتْ مَفَاتِيحَهَا، وَرَانَ عَلَيْهَا كَسْبُهَا فَلَمْ يَنْفَعْ فِيهَا الكَلَام، وَسَكرَتْ بِشَهَوَاتِ الغَيِّ وَشَهَادَةِ البَاطِلِ فَلَمْ تَصْغِ بَعْدَهُ إِلَى المَلَام، وَوُعِظَتْ بِمَوَاعِظَ أَنْكَى فِيهَا الأَسِنَّةِ وَالسِّهَام، وَلَكِنْ مَاتَتْ فِي بَحْرِ الجَهْلِ وَالغَفْلَةِ، وَأَسْرِ الهَوَى وَالشَّهْوَةِ وَمَا لِجُرْح بِمَيِّتٍ إِيلَام»(٢).

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرَّعد].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ:

«ذَكَرَ تَعَالَى عَلَامَةَ المُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (١/ ٣).

(٢) «الوَابِلُ الصَيِّب» (ص٧٢).

أَيْ: يَزُولُ قَلَقُهَا وَاضْطِرَابُهَا، وَتَحْضُرُهَا أَفْرَاحُهَا وَلَذَّاتُهَا.

﴿ بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ أَيْ: حَقِيقٌ بِهَا وَحَرِيٌّ أَنْ لَا تَطْمَئِنَّ لِشَيْءٍ سِوَى ذِكْرِه، فَإِنَّهُ لَا شَيْءَ أَلَذَّ لِلْقُلُوبِ وَلَا أَشْهَى وَلَا أَحْلَى مِنْ مَحَبَّةِ خَالِقِهَا، وَالأُنْسِ بِهِ وَمَعْرِفَتِهُ، وَعَلَى قَدْرِ مَعْرِفَتِهَا بِالله وَمَحَبَّتِهَا لَهُ، يَكُونُ ذِكْرُهَا لَهُ، هَذَا عَلَى القَوْلِ بِأَنَّ ذِكْرَ الله ذِكْرُ العَبْدِ لِرَبِّهِ، مِنْ تَسْبِيحٍ وَتَهْلِيلٍ وَتَكْبِيرٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ»[1].

قِيلَ: «عَجَبٌ مَنْ بِيَدِهِ القُرْآن وَهُوَ يَطْلُبُ سِوَاه، وَمَنْ عَرَفَ رَبَّه ثُمَّ عَصَاه».

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ - عَلَى اسْتِحْيَاء - قَدْ قرأتُ القُرْآن وَلَمْ أَجِدْ تِلْكَ الرَّاحَةَ وَالاطْمِئْنَان؟!

فَنَقُولُ أَنَّ الخَلَلَ فِيك وَهَذا يَكْفِيك، وَلَيْسَ الخَلَلُ فِي كَرِيمِ الرَّحْمَن القَائِل: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [ٱلنِّسَآءِ]، وَالقَائِل: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴿١٢٢﴾﴾ [ٱلنِّسَآءِ].

إِذْ يَنْبَغِي لِقَارِئ القُرْآن كَمَا قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أَنْ يَكُونَ شَأْنُهُ الخُشُوع، وَالتَّدَبُّرُ وَالخُضُوع، فَهَذَا هُوَ المَقْصُودُ المَطْلُوب، وَبِهِ تَنْشَرِحُ الصُّدُورُ وَتَسْتَنِيرُ القُلُوب، وَدَلَائِلُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَر، وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَر.

---

(١) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص٤١٦).

وَقَدْ بَاتَ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ يَتْلُو الوَاحِدُ مِنْهُمْ الآيَةَ الوَاحِدَةَ لَيْلَةً كَامِلَةً أَوْ مُعْظَمَ لَيْلَة يَتَدَبَّرُهَا عِنْدَ القِرَاءَة»[(١)].

فَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي قِرَاءَةِ القُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ لَاشْتَغَلُوا بِهَا عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهَا، فَإِذَا قَرَأَهُ بِتَفَكُّرٍ حَتَّى مَرَّ بِآيَةٍ وَهُوَ مُحْتَاجٌ إِلَيْهَا فِي شِفَاءِ قَلْبِهِ كَرَّرَهَا وَلَوْ مِائَةَ مَرَّة، وَلَوْ لَيْلَة، فَقِرَاءَةُ آيَةٍ بِتَفَكُّرٍ وَتَفَهُّمٍ خَيْر مِنْ قِرَاءَة خَتْمَة بِغَيْر تَدَبُّر وَتَفَهُّم، وَأَنْفَع لِلْقَلْبِ وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الإِيمَان وَذَوْقِ حَلَاوَةِ القُرْآن[(٢)].

وَقَدْ وَصَفَ الله تَعَالَى القُرْآنَ بِأَنَّهُ شِفَاء، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

«وَ﴿مِنَ﴾ هُنَا لِبَيَانِ الجِنْسِ لَا لِلتَّبْعِيضِ **فَإِنَّ القُرْآنَ كُلّه شِفَاء**.. فَهُوَ شِفَاءٌ لِلْقُلُوبِ مِنْ دَاءِ الجَهْلِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ، فَلَمْ يُنْزِلْ الله سُبْحَانَهُ مِنَ السَّمَاءِ شِفَاءً قَطُّ أَعَم وَلَا أَنْفع وَلَا أَعْظَم وَلَا أَشْجَع فِي إِزَالَةِ الدَّاءِ مِنَ القُرْآن»[(٣)].

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُون بْنِ مَهْرَان قَالَ: خَرَجْتُ بِأَبِي أَقُودُهُ فِي بَعْضِ سِكَكِ البَصْرَةِ فَمَرَرْتُ بِجَدْوَلٍ فَلَمْ يَسْتَطِعْ الشَّيْخُ يَتَخَطَّاهُ فَاضْطَجَعْتُ لَهُ فَمَرَّ عَلَى ظَهْرِي، ثُمَّ قُمْتُ فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ثُمَّ دَفَعْنَا إِلَى مَنْزِلِ الحَسَن (أَيْ: البَصْرِي)

(١) «الأَذْكَار» (١٠٧).

(٢) «مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَة» (١/ ١٨٧).

(٣) «الجَوَابُ الكَافِي» (ص ٨).

فَطَرَقْتُ البَابَ، فَخَرَجَتْ إِلَيْنَا جَارِيَةٌ..فَقَالَتْ: مَنْ هَذَا؟

قُلْتُ: هَذَا مَيْمُون بْنُ مَهْرَان أَرَادَ لِقَاءَ الحَسَن.

فَقَالَتْ: كَاتِبُ عُمَرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيز؟

قُلْتُ لَهَا: نَعَمْ.

قَالَتْ: يَا شَقِي مَا بَقَاؤُكَ إِلَى هَذَا الزَّمَان السُّوء؟

قَالَ: فَبَكَى الشَّيْخُ فَسَمِعَ الحَسَنُ بُكَاءَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ فَاعْتَنَقَا ثُمَّ دَخَلَا فَقَالَ: مَيْمُون يَا أَبَا سَعِيدٍ قَدْ أَنستُ مِنْ قَلْبِي غِلْظَةً فَاسْتَلِنْ لِي مِنْهُ؟

فَقَرَأَ الحَسَنُ: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشُّعَرَاء].

قَالَ: فَسَقَطَ الشَّيْخُ، فَرَأَيْتُهُ يَفْحُصُ بِرِجْلِهِ كَمَا تَفْحَصُ الشَّاةُ المَذْبُوحَةُ، فَأَقَامَ طَوِيلًا ثُمَّ أَفَاقَ، فَجَاءَت الجَارِيَةُ فَقَالَتْ: قَدْ أَتْعَبْتُمْ الشَّيْخَ قُومُوا تفرَّقُوا.

فَأَخَذَتُ بِيَدِ أَبِي فَخَرَجَتُ بِهِ ثُمَّ قُلْتُ: يَا أَبَتَاه هَذَا الحَسَن؟ قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ هَذَا!

قَالَ: فَوَكَزَنِي فِي صَدْرِي وَكْزَةً ثُمَّ قَالَ: **يَا بُنَيّ لَقَدْ قَرَأَ عَلَيْنَا آيَةً لَوْ فَهِمْتَهَا بِقَلْبِكَ لَبَقِي لَهَا فِيكَ كُلُوم**»[1].

وَمِنْ أَخَصِّ الآيَاتِ الَّتِي أَنْصَحُكَ بِهَا فِي هَذَا المَقَامِ أَيُّهَا الأَخُ المَهْمُوم:

---

(١) «حِلْيَةُ الأَوْلِيَاء» (٤/ ٨٣).

آيَاتُ السَّكِينَة، وَاسْمَعْ لِهَذَا الكَلَامِ النَّافِعِ وَالنَّقْلِ المَاتِعِ:

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هَذِهِ المَنْزِلَةُ (أَيْ:السَّكِينَة) مِنْ مَنَازِلِ المَوَاهِب لَا مِنْ مَنَازِلِ المَكَاسِب، وَقَدْ ذَكَرَ الله سُبْحَانَهُ السَّكِينَةَ فِي كِتَابِهِ فِي سِتَّةِ مَوَاضِع:

الأُولَى: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البَقَرَة].

الثَّانِي: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التَّوبَة].

الثَّالِثُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التَّوبَة].

الرَّابِعُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفَتْح].

الخَامِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ١٨﴾ [الفَتْح].

السَّادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾ [الفَتْح].

وَكَانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ إِذَا اشْتَدَّتْ عَلَيْهِ الأُمُور: قَرَأَ آيَاتِ السَّكِينَة، وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي وَاقِعَةٍ عَظِيمَةٍ جَرَتْ لَهُ فِي مَرَضِهِ تَعْجزُ العُقُولُ عَنْ حَمْلِهَا مِنْ مُحَارَبَةِ أَرْوَاحٍ شَيْطَانِيَّةٍ ظَهَرَتْ لَهُ إِذْ ذَاكَ فِي حَالِ ضُعْفِ القُوَّةِ قَالَ: فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيَّ الأَمْرُ قُلْتُ لِأَقَارِبِي وَمَنْ حَوْلِي: اقْرَؤُوا آيَاتِ السَّكِينَةِ قَالَ: ثُمَّ أَقْلَعَ عَنِّي ذَلِكَ الحَالُ وَجَلَسْتُ وَمَا بِي قَلَبَة.

وَقَدْ جَرَّبْتُ أَنَا (أَيْ الإِمَام ابْن القَيِّم) أَيْضًا قِرَاءَةَ هَذِهِ الآيَاتِ عِنْدَ اضْطِرَابِ القَلْبِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ فَرَأَيْتُ لَهَا تَأْثِيرًا عَظِيمًا فِي سُكُونِهِ وَطُمَأْنِينَتِهِ»[1].

وَتدَبَّر أَخِي فِي الله مِثَالًا آخَرَ فِي [سُورَة طه]:

تَضَمَّنَتْ عَدَدًا مِنَ المَقَاصِدِ لَعَلَّ أَجَلَّهَا ذِكْرُ أُصُولِ السَّعَادَةِ حَيْثُ ذُكِرَ فِي مُفْتَتَحِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿طه ١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ٢﴾ ثُمَّ ذُكِرَتْ تَفَاصِيلُ السَّعَادَةِ فِي تَضَاعِيفِهَا كَتَوْحِيدِ الله، وَالدَّعْوَةِ إِلَى سَبِيلِهِ، وَالإِكْثَارِ مِنْ

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (٢/ ٥٠٢).

ذِكْرِهِ.

ثُمَّ أُجْمِلَتْ فِي آخِرِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

عَجِبْتُ مِنْ أَرْبَعٍ:

١/ عَجِبْتُ لِمَنْ ابْتُلِي **بِغَمٍّ** كَيْفَ يَغْفَلُ عَنْ قَوْلِ: ﴿أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:].

وَاللهُ يَقُولُ بَعْدَهَا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:].

٢/ عَجِبْتُ لِمَنْ ابْتُلِي **بِضُرٍّ** عَنْ قَوْلِ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء:].

وَاللهُ يَقُولُ بَعْدَهَا: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:].

٣/ عَجِبْتُ لِمَنْ ابْتُلِي **بِخَوْفٍ** عَنْ قَوْلِ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [ ].

وَاللهُ يَقُولُ بَعْدَهَا: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾ [ ].

---

(١) «خَوَاطِر» (ص٢٢٨).

٤/ عَجِبْتُ لِمَنْ ابْتُلِي بِمَكْرِ النَّاسِ عَنْ قَوْلِ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ٤٤﴾ [غافر].

وَاللهُ يَقُولُ بَعْدَهَا: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر][1].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ:

"فَلَوْ رُفِعَتْ الأَقْفَالُ عَنِ القُلُوبِ لَبَاشَرَتْهَا حَقَائِقُ القُرْآن، وَاسْتَنَارَتْ فِيهَا مَصَابِيحُ الإِيمَان".[2]



(١) «وَقَفَاتٌ لِمَنْ يُرِيدُ السَّعَادَة» (ص ٣٧).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (٣/ ٤٣٧).

النَّصِيحَةُ الثَّالِثَةُ: الإِيمَانُ بِقَضَاءِ الله وَقَدَرِه

الإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ[1] يُوَلِّدُ فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ الطُّمَأْنِينَة وَالرِّضَا، ويُبْعِدُ

---

(١) وَالإِيمَانُ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ يَتَضَمَّنُ الإيمان بِأُمُورٍ أَرْبَعَةٍ:

١ - الإِيمَانُ بِأَنَّ الله تَعَالَى عَلِمَ أَحْوَالَ عِبَادِهِ، وَأَرْزَاقَهُمْ، وَآجَالَهُمْ، وَأَعْمَالَهُمْ، وَمَا كَانَ وَيَكُون، لَا يَخفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [العَنكبُوت].

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطَّلَاق]

٢ - كِتَابَتُهُ ﷻ لِكُلِّ المَقَادِير، قَالَ ﷻ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يسٓ].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ ].

وَفِي «صَحِيح مُسْلم»: « كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ» برقم (٢٦٥٣).

٣ - الإِيمَانُ بِمَشِيئَةِ الله النَّافِذَةِ، فَمَا شَاءَ كَان وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، قَالَ ﷻ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التَّكْوِير].

وَقَالَ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يسٓ].

٤ - الإِيمَانُ بِأَنَّ الله هُوَ الخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ لَهُ، قَالَ ﷻ: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزُّمَر].

=

عنهَا القلَقَ وَالاكْتِئَابَ وَسَائِرَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّة، لِأَنَّ مَا يُصِيبُ المُؤمِنَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَأَنَّ مَا أَخْطَأَه لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَبِهَذِهِ القَنَاعَةِ تُولَدُ عِنْدَ المُؤمِنِ طُمَأْنِينَةً وَرَاحَةً، لِأَنَّهُ يَعْلَمُ بِأَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ أَوْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ، هُوَ أَرْحَمُ بِهِ مِن نَّفْسِهِ وَمِنْ وَالِدَيْهِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، فَمَا قَدَّرَهُ الخَالِقُ هُوَ خَيْرٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ التَّعَب وَالنَّصَب وَالأَلَم، وَهُوَ مَا عَبَّرَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِهِ: «عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

قِيلَ: «أَسْوَءُ النَّاسِ (حَالًا)، مَنْ أَرَادَ تَحْقِيقَ أَحْلَامِه (حَالًا)».

فَالرَّاحَةُ وَالهُدُوءُ النَّفْسِي دَأْبُ المُؤْمِنِ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاء، وَفِي الحِلِّ وَالتِّرْحَال، وَفِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَان، لِأَنَّ هَذِهِ النَّفس قَدْ ارْتَبَطَتْ بِوَشَائِجَ قَوِيَّةٍ وَحِبَالٍ مَتِينَةٍ مَعَ الله تَعَالَى الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا، فَإِذَا ارْتَقَى العَبْدُ إِلَى هَذِهِ الدَّرَجَة مِنَ اليَقِين، أَزَالَ الله عَنْهُ الكُرُبَاتِ النَّفْسِيَّة وَجَمِيع الاضْطِرَابَات وَالانْفِعَالَات وَالتَشَنُّجات، وَأَبْدَلَهَا بِرُوحٍ مِنْ عِنْدِهِ جل وعلا، بَلْ إِنَّهُ جَلَّتْ

=

«عَقِيدَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ» (ص١٣٩).

وَهَذِهِ مَرَاتِبُ القَدَرِ وَهِيَ أَرْبَعٌ نَظَمَهَا بَعْضُهُمْ فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ فَقَالَ:

عِلْمٌ كِتَابَةُ مَوْلَانَا مَشِيئَتُهُ وَخَلْقُهُ وَهْوَ إِيجَادٌ وَتَكْوِينٌ

«أَبْيَات جَمْع الشَّتَات» (ص٥).

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٧٥٠٠).

قُدْرَتُهُ، يَحُوِّلُ نَفْسَ هَذَا المُؤْمِنِ إِلَى رَوْضَةٍ إِيمَانِيَّةٍ تَتَجَمَّعُ فِيهَا أَلْوَانُ الرَّيَاحِينِ وَالزُّهُورِ، وَتَنْفُثُ عَنْهَا خُبْثَ الشَّيَاطِينِ مِنَ القَلَقِ وَالكَآبَةِ وَاليَأْسِ[1].

قَالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ بْنُ صَالِحٍ العُثَيْمِين رَحِمَهُ اللهُ وَهُوَ يُعَدِّدُ فَوَائِدَ الإِيمَانِ بِالقَضَاءِ وَالقَدَرِ:

«أَنَّ الإِنْسَانَ يَبْقَى مُطْمَئِنًّا لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ هَذَا مِنَ اللهِ رَضِيَ وَاطْمَأَنَّ وَعَرَفَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، وَقَدْ قُلْنَا: إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُغَيِّرَ الشَّيْءَ عَمَّا وَقَعَ أَبَدًا، فَلَا تُحَاوِلْ، وَلَا تُفَكِّرْ، وَلَا تَقُلْ: (لَوْ)، فَالَّذِي وَقَعَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَغَيَّرَ أَوْ يَتَحَوَّلَ.

إِنَّ الإِيمَانَ بِالقَدَرِ عَلَى وَجْهِ الحَقِيقَةِ يَكْشِفُ لِلْإِنْسَانِ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا يُقَدِّرُه مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، وَيَعْرِفُ بِهِ أَنَّ وَرَاءَ تَفْكِيرِهِ وَتَخَيُّلَاتِهِ مَنْ هُوَ أَعْظَمُ وَأَعْلَم، وَلِهَذَا كَثِيرًا مَا نَفْعَلُ الشَّيْءَ أَوْ كَثِيرًا مَا يَقَعُ الشَّيْءُ فَنَكْرَهُهُ وَهُوَ خَيْرٌ لَنَا.

فَأَحْيَانًا يُشَاهِدُ الإِنْسَانُ رَأْيَ العَيْنِ أَنَّ اللهَ يُعَسِّرُ عَلَيْهِ أَمْرًا يُرِيدُهُ، فَإِذَا حَصَلَ مَا حَصَلَ وَجَدَ أَنَّ الخَيْرَ فِي عَدَمِ حُدُوثِ ذَلِكَ الشَّيْءِ.

وَمَا أَكْثَرَ مَا نَسْمَعُ أَنَّ فُلَانًا قَدْ حَجَزَ فِي الطَّائِرَةِ الفُلَانِيَّةِ عَلَى أَنَّهُ سَيُسَافِرُ، ثُمَّ يَأْتِي فَيَجِدُ أَنَّ الطَّائِرَةَ قَدْ أَقْلَعَتْ، وَفَاتَهُ السَّفَر، فَإِذَا بِالطَّائِرَةِ يَحْصُلُ عَلَيْهَا حَادِثٌ.

فَهُوَ عِنْدَمَا حَضَرَ أَوَّلًا لِيَرْكَبَ فِيهَا وَوَجَدَ أَنَّهَا أَقْلَعَتْ يَحْزُن، لَكِنْ عِنْدَمَا يَقَعُ

---

(١) «حَيَاةُ السُّعَدَاء» (ص ٢٤٠).

الحَادِثُ يَعْرِفُ أَنَّ هَذَا خَيْرٌ لَهُ، وَلِهَذَا قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البَقَرَة]»[1].

قِيلَ: «شِفَاءُ الصُّدُور فِي التَّسْلِيمِ لِلْمَقْدُور».

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحَدِيد].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَمَتَى ظَفَرَ العَبْدُ بِهَذِهِ المَعْرِفَةِ سَكَنَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الآخِرَةِ فِي جَنَّةٍ لَا يُشْبِهُ فِيهَا إِلَّا نَعِيمَ الآخِرَة، فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ، وَالرِّضَا جَنَّةُ الدُّنْيَا وَمُسْتَرَاحُ العَارِفِين، فَإِنَّهُ طَيِّبُ النَّفْسِ بِمَا يَجْرِي عَلَيْهِ مِنَ **المَقَادِيرِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ اخْتِيَارِ الله لَهُ**، وَطُمَأْنِينَتُهَا إِلَى أَحْكَامِهِ الدِّينِيَّة، وَهَذَا هُوَ الرِّضَا بِالله رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا، وَمَا ذَاقَ طَعْمُ الإِيمَانِ مَنْ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ ذَلِك»[2].

قَالَ ﷺ: «وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ

---

(١) «مَجْمُوعُ فَتَاوِيهِ» (٣/ ٢١٥).

(٢) «الفَوَائِد» (ص٩٣).

قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١).

كَمْ مِنْ مِحَن تَمَخَّضَ عَنْهَا مِنَح؟

كَمْ مِنْ بَلَايَا كَانَتْ عَطَايَا؟

كَمْ مِنْ ابْتِلَاءَات كَانَ بَعْدَهَا خَيْرَات؟

كَمْ مِنْ شَدَائِد كَانَتْ عَظِيمَةَ الفَوَائِد؟

كَمْ مِنْ مَضَايِق فِيهَا مَفَاتِيح المَغَالِق؟

كَمْ مِنْ أَمْرَاضٍ لِلْأَبْدَان أَدَّت لِزِيَادَةِ الإِيمَان؟

كَمْ مِنْ ضَيْقٍ لِلصَّدْر كُتِبَ بِهِ عَظِيم الأَجْر؟

فَإِذَا فَهِمْتَ هَذِهِ (كَمْ) زَالَ عَنْكَ كَثِير مِنَ (الهَمّ) وَعَدِيد مِنَ (الغَمّ) فَقُلْ: الحَمْدُ لله وَحَرِّكْ بِهَا (الفَمّ)..

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البَقَرَة: ٢١٦].

وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النِّسَاء].

عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَي النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً؟ قَالَ ﷺ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ

(١) رَوَاهُ التِّرمِذِي (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٧٩٥٧).

بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[١].

أَخِي الحَبِيب «أَيْنَ أَنْتَ وَالطَّرِيقُ طَرِيقٌ تَعِبَ فِيهِ آدَم، وَنَاحَ لِأَجْلِهِ نُوح، وَرُمِيَ فِي النَّارِ الخَلِيل، وَأُضْجِعَ لِلذَّبْحِ إِسْمَاعِيل، وَبِيعَ يُوسُف بِثَمَنٍ بَخْسٍ وَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِين، وَنُشِرَ بِالمِنْشَارِ زَكَرِيَّا، وَذُبِحَ السَّيِّدُ الحَصُور يَحْيَى، وَقَاسَى الضُّرَّ أَيُّوب، وَزَادَ عَلَى المِقْدَارِ بُكَاء دَاوُد، وَسَارَ مَعَ الوَحْشِ عِيسَى، وَعَالَجَ الفَقْرَ وَأَنْوَاعَ الأَذَى مُحَمَّدٌ ﷺ»[٢].

فَالصَّبْــــرُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الصَّبْرُ؟!

«إِنَّ الله سُبْحَانَهُ جَعَلَ الصَّبْرَ جَوَادًا لَا يَكْبُو، وَصَارِمًا لَا يَنْبُو، وَجُنْدًا لَا يُهْزَم، وَحِصْنًا حَصِينًا لَا يُهْدَم وَلَا يُثْلَم، فَهُوَ وَالنَّصْرُ أَخَوَان شَقِيقَان، فَالنَّصْرُ مَعَ الصَّبْر، وَالفَرَجُ مَعَ الكَرْب، وَالعُسْرُ مَعَ اليُسْر، وَهُوَ أَنْصَرُ لِصَاحِبِهِ مِنَ الرِّجَال بِلَا عُدَّة وَلَا عَدَد، وَمَحَلُّهُ مِنَ الظَّفَرِ كَمَحَلِّ الرَّأْسِ مِنَ الجَسَد»[٣].

فَالصَّبْرُ بِالله، وَمَعَ الله.. وَفِي الله... ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النَّحْل].

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٢٣٩٨)، وَابْنُ مَاجَه (٤٠٢٣)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيحَة» (١٤٣).

(٢) «الفَوَائِد» (ص٤٢).

(٣) «عُدَّةُ الصَّابِرِين» (ص٣).

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

تَقُولُ إِحْدَى الأَخَوَات:

فُوجِئْتُ أَنَّ ابْنَتِي ذَات الخَمْس سَنَوَات تُعَانِي مِنْ شَيْءٍ مَا فِي عَيْنَيْهَا، تَقُولُ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي لَاحَظْتُ وَبَيْنَمَا كَانَ ضَوْءُ الغُرْفَةِ خَافِتًا نَوْعًا مَا أَنَّ ابْنَتِي حِينَ تُحَدِّثُنِي لَا تَنْظُرُ نَحْوِي مُبَاشَرَة بَلْ إِلَى جِوَارِي، فَطَارَ قَلْبِي خَوْفًا وأَلَمًا عَلَيْهَا، وَمَا إِنْ رَأَى الطَّبِيبُ قَاعَ العَيْنِ إِلَّا وَظَهَرَ عَلَى وَجْهِهِ الحُزْنُ وَالأَسَى، وَأَخْبَرَنِي أَنَّهَا تُعَانِي مِنْ مَرَضٍ مَجْهُولٍ، قَدْ تَخْتَفِي الرُّؤْيَةُ مَعَ الأَيَّام، وَأَخْبَرَنِي الأَطِبَّاءُ لُا فَائِدَةَ فِي عِلَاجِهَا دَاخِلَ البِلَادِ أَوْ خَارِجَهَا.

كَانَ الخَبَرُ كَأَنَّهُ عَاصِفَةٌ تَعْصِفُ بِي يَمْنَةً وَيَسْرَة، تَلُوحُ أَمَامِي عَيْنَاهَا البَرِيئَتَانِ اللَّتَانِ كُنْتُ كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا وَهِيَ تَنْظُرُ بِهِمَا إِلَى جِوَارِي شَعَرْتُ بِطَعْنَةٍ قَوِيَّةٍ فِي قَلْبِي، لَا يَعْلَمُ حُرْقَتَهَا إِلا الله الوَاحِد الأَحَد.

وَلَكِـــنْ سُرْعَانَ مَا اسْتَرْجَعْتُ بِفَضْلِ الله وَحْدَه، وَجَاهَدْتُّ نَفْسِي أَنْ أُنْزِلَهَا مَنَازِلَ الرِّضَا، فَكُنْتُ أُرْضِي نَفْسِي كَثِيرًا فَأَقُولُ لَهَا: هَذَا اخْتِيَارُ اللَّطِيفِ الخَبِير، هَذَا اخْتِيَارُ الكَرِيمِ القَدِير، هَذَا اخْتِيَارُ الرَّحِيمِ الوَدُود، هَذَا اخْتِيَارُ الله الحَكِيم، وَلَابُدَّ أَنَّ هَذَا هُوَ أَنْسَبُ حَالٍ لَهَا وَلِصَلَاحِ دِينِهَا، لَعَلَّهُ تَعَالَى يُرِيدُ أَنْ يَعْصِمَهَا مِنْ رُؤْيَةِ الفِتَن وَالمُنْكَرَات، وَمَا تَقْذِفُ بِهِ القَنَوَات الفَاسِدَة الَّتِي زَادَ شَرُّهَا وَكَثُرَ انْتِشَارُهَا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله.

وَهَكَذَا لَازِلْتُ بِنَفْسِي أُرَضِّيهَا بِالله (رَضِيتُ بِالله رَبًّا)، حَتَّى أَنْزَلَ الرَّحْمَن

الرَّحِيم السَّكِينَةَ وَالرِّضَا فِي قَلْبِي، فَأَبْدَلَ الله ﷻ خَوْفِي أَمْنًا، وَأَلَمِي رِضًا، وَازْدَادَ يَقِينِي وَرَجَائِي فِيهِ سُبْحَانَهُ، فَالخَلْقُ خَلْقه وَالأَمْرُ أَمْرُه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف].

فَتَرَكْتُ الأَمْر لِصَاحِب الأَمْر، فَلَا مَجَالَ لِلْحُزْنِ لِقَضَاءِ الله وَقَدَرِهِ أَبَدًا وَإِنَّمَا الرِّضَا وَالتَّسْلِيم وَالصَّبْر[1].

وَأُذَكِّرُكَ أَخِي الكَرِيم بِهَذَا الحَدِيثِ العَظِيم فَتَأَمَّلْ وَتَدَبَّرْ وَتَفَكَّرْ...

عَنْ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: كُنتُ خَلفَ النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ:

«يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كَلماتٍ: احفَظِ الله يَحْفَظْكَ، احفَظِ الله تَجِدْهُ تجاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ الله، وَإِذَا استَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، **لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ**، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضرُّوكَ بِشَيْءٍ، **لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ**، رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ»[2].

وَفِي رِوَايَةٍ: «احْفَظِ الله تَجِدْهُ أَمَامَك، تَعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، **وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ**، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبرِ، وأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسراً».

---

(١) «إِنَّ لَكَ رَبًّا يَحْمِيك» (ص ١٦).

(٢) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٢٥١٦)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٧٩٥٧).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمِنْ لَطَائِفِ أَسْرَارِ اقْتِرَانِ الفَرَجِ بِالكَرْب وَاليُسْر بِالعُسْر: أَنَّ الكَرْبَ إِذَا اشْتَدَّ وَعظُمَ وَتَنَاهَى، وَحَصَلَ لِلْعَبْدِ الإِيَاسُ مِنْ كَشْفِه مِنْ جِهَةِ المَخْلُوقِين، وَتعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالله وَحْدَه، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ التَوَكُّل عَلَى الله، **وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُطْلَبُ بِهَا الحَوَائِجُ**، فَإِنَّ الله يَكْفِي مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾ [الطَّلَاق: ٣]»[1].

وَقَدْ يَأْتِي العَبْدَ الفَرَجُ مِنْ حَيْثَ لَا يَحْتَسِب وَاسْمَعْ لَهِذِهِ القِصَّةِ العَجِيبَة الغَرِيبَة **وَكَيْفَ أَنَّ الفَرَجَ كَانَ عَلَى يَدِ نَبَّاشِ القُبُور!**

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«كَانَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى يُدْعَى بِحَامِلِ كَفَنِه، وَذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ الخَطِيب قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّهُ تُوفِي فَغُسِّل وَكُفِّن وَصُلِّي عَلَيْه وَدُفِنَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْل جَاءَ نَبَّاشٌ لِيَسْرِق كَفَنَه فَفَتَحَ عَلَيْه قَبْرَه.

فَلَمَّا حَلَّ عَنْهُ كَفَنَهُ اسْتَوَى جَالِسًا، وَفَرَّ النَبَّاشُ هَارِبًا مِنَ الفَزَع، وَنَهَضَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى هَذَا، فَأَخَذَ كَفَنَهُ مَعَهُ وَخَرَجَ مِنَ القَبْرِ وَقَصَدَ مَنْزِلَهُ فَوَجَدَ أَهْلَهُ يَبْكُونَ عَلَيْهِ، فَدَقَّ عَلَيْهِم البَابَ فَقَالُوا: مَنْ هَذَا؟

فَقَالَ: أَنَا فُلَان.

(١) «جَامِعُ العُلُوم وَالحِكَم» (١٩٧).

فَقَالُوا: يَا هَذَا لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَزِيدَنَا حُزْنًا إِلَى حُزْنِنَا.

فَقَالَ: افْتَحُوا، وَاللهِ أَنَا فُلَان، فَعَرَفُوا صَوْتَهُ فَلَمَّا رَأَوْه فَرِحُوا بِهِ فَرَحًا شَدِيدًا وَأَبْدَلَ اللهُ حُزْنَهُمْ سُرُورًا.

ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ النَّبَّاش.

وَكَأَنَّهُ قَدْ أَصَابَتْهُ سَكْتَة وَلَمْ يَكُن قَدْ مَات حَقِيقَةً فَقَدَّر اللهُ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ أَنْ **بَعَثَ لَهُ هَذَا النَّبَّاش فَفَتَحَ عَلَيْهِ قَبْرَه، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَب حَيَاتِه**، فَعَاشَ بَعْدَ ذَلِكَ عِدَّةَ سِنِين»[1].

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «مَنْ رَضِيَ بِالْمَقْدُورِ قَنَعَ بِالْمَيْسُورِ».

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «مُصِيبَةٌ تُقْبِلُ بِهَا عَلَى اللهِ، خَيْرٌ مِنْ نِعْمَةٍ تُنْسِيكَ اللهَ».

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «فَقْدُ الصَّبْرِ أَعْظَمُ مَصَائِبِ الدَّهْرِ».

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «الطُّرُق المَفْرُوشَة بِالوَرْد لَنْ تَقُودك للمَجْد».

حِكْمَةٌ: قِيلَ: «لا يَقْلَقُ مَنْ كَانَ لَهُ أَب، فَكَيْفَ بِمَنْ كَانَ لَهُ رَبّ».



(١) «البِدَايَةُ وَالنِّهَايَة» (١١/ ١١٨).

النَّصِيحَةُ الرَّابِعَةُ: العِبَادَةُ وَبِخَاصَّةٍ الصَّلَاة

فَالصَّلَاة وَمَا أَدْرَاكَ مَا الصَّلَاة؟! ﴿ إِنَّ ... تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[العَنكبُوت: ٤٥].

إِنَّهَا أَجْمَلُ الأَوْقَاتُ وَأَرْوَعُ اللَّحَظَات.. ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[البَقَرَة].

إِنَّهَا العُبُودِيَّة لِرَبِّ البَرِيَّة.. ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [البَقَرَة].

إِنَّهـا العَبَـادَةُ بِالـذِّكْرِ وَالـدُّعَاء، والـذُّلِ والثَّنَاء..خُشُـوعٌ وخُضُـوع.. سُـجُودٌ وَرُكُوع.

بَالصَّلَاة يُنَال رِضَى الرَّحْمَن.. وَاتِّبَاعٌ لِطَرِيقِ مُحَمَّدِ وَلَدِ عَدْنَان ﷺ..

مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ رَحِيلِ الأَحْزَان، وَتَمْزِيقِ حِبَالِ الأَشْجَان، وَفِي الجُمَعِ وَالجَمَاعَات لِقَاءٌ لِلْإِخْوَان وَالخِلَّان..وَتَعَلُّق القَلْبِ بِالكَرِيمِ الرَّحْمَن...

فَالدُّنيا بِغُمُومِهَا وهُمُومِهَا.. (مُتْعِبَـــــة)... لَكِنَّهَا بِالصَّلَاةِ وَتَعَلُّقِ القَلْبِ بِالرَبِّ يَسْقُطُ (البَاء) فَتُصْبِحُ (مُتْعَة).

وَمِنْ عَجَائِبِ الأَخْبَار مَا نُشِرَ عَنْ عَمِيدِ الأَطِبَّاءِ النَّفْسَانِيِّين فِي أَلْمَانْيَا أَنَّهُ اعْتَادَ أَنْ يُعَالِجَ مَرْضَاهُ بِإِسْمَاعِهِمْ «الأَذَان» دُونَ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّهُ النِّدَاء الإِسْلَامِي بِاللُّغَةِ

العَرَبِيَّةِ لِأَدَاءِ الصَّلَاة، وَلَمَّا اكْتَشَفَ هَذِهِ الحَقِيقَة قَالَ: «إِنَّ كَلِمَاتِ الأَذَانِ الَّذِي يَدْعُو المُسْلِمِينَ إِلَى الصَّلَاةِ، يُدْخِلُ السَّكِينَةَ إِلَى قَلْبِ المَرِيضِ النَّفْسِي حَتَّى لَوْ لَمْ يَكُنْ يَفْهَم مَعَانِيهَا!!

وَأَضَافَ: «إِنَّ الأَذَانَ يَزْرَعُ النُّورَ وَالأَمَلَ بِدَاخِلِ المُصَابِين بِالاكْتِئَاب، أَوْ فُقْدَان الثِّقَة بِالنَّفْسِ، أَوْ كَرَاهِيَةِ الحَيَاة، أَوْ الشُّعُور بِالفَشَل»[1].

كُلُّ هَذَا بِسَمَاعِ النِّدَاء، فَمَا بَالُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاء، وَالانْطِرَاح سَاجِدًا مع الثَّناء والدُعَاء!!

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البَقَرَة].

قَالَ العَلَّامَةُ مُحَمَّدُ الأَمِين الشَّنْقِيطِي رَحِمَهُ اللهُ:

«وَلَا شَكَّ أَنَّ لِطَالِبِ العِلْمِ هُنَا سُؤَالاً وَهُوَ أَنْ يَقُولَ: أَمَّا الاسْتِعَانَةُ بِالصَّبْرِ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَهِيَ أَمْرٌ وَاضِحٌ لَا إِشْكَالَ فِيهِ؛ لِأَنَّ مَنْ حَبَسَ نَفْسَهُ عَلَى مَكْرُوهِهَا فِي طَاعَةِ اللهِ كَانَ ذَلِكَ أَكْبَرَ مُعِينٍ عَلَى الطَّاعَةِ، وَلَكِنْ مَا وَجْهُ الاسْتِعَانَةِ بِالصَّلَاةِ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟

الجوابُ: أَنَّ الصَّلَاةَ هِيَ أَكْبَرُ مُعِينٍ عَلَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ العَبْدَ إِذَا وَقَفَ بَيْنَ يَدَي رَبِّهِ، يُنَاجِي رَبَّهُ وَيَتْلُو كِتَابَهُ تَذَكَّرَ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الثَّوَابِ، وَمَا لَدَيْهِ مِنَ العِقَابِ؛

(١) «رَسَائِلُ إِلَى الشَّبَاب» (ص ٧٢)

فَهَانَ فِي عَيْنِهِ كُلُّ شَيْءٍ، وَهَانَتْ عَلَيْهِ مَصَائِبُ الدُّنْيَا، وَاسْتَحْقَرَ لَذَّاتِهَا؛ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَ اللهِ، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدَ اللهِ»[١].

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [سُورَةُ الحِجْرِ].

فِي هَذِهِ الآيَة إِرْشَاد إِلَى مَا يَطْرُدُ الهَمَّ، وَيُحِلُّ مَحَلَّه السُّرُور وَالرِّضَا؛ حَيْثُ أَمَرَه بِخُصُوصٍ، ثُمَّ عُمُومٍ، ثُمَّ أَعَمّ، فَأَرْشَدَهُ إِلَى أَمْرٍ يَسِيرٍ وَهُوَ ذِكْرُ الله وَتَسْبِيحُهُ، وَإِلَى الصَّلَاةِ وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الذِّكْرِ المُجَرَّدِ، ثُمَّض أَرْشَدَهُ إِلَى الإِقْبَالِ عَلَى العِبَادَةِ بِمَفْهُومِهَا العَام الشَّامِلِ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنْيَا؛ فَفِي ذَلِكَ سَلْوَتُهُ، وَعَزَاؤُهُ، بَلْ فَرَحُهُ، وَنَعِيمُ قَلْبِهِ.

فَيَا لَهَا مِنْ وَصْفَةٍ عَظِيمَةٍ لَوْ تَدَبَّرْنَاهَا، وَأَخَذْنَا بِهَا[٢].

العَبْدُ إِذَا اشْتَكَى لِمَنْ يَثِقُ فِيهِ قَدْ يَجِدُ أَثَرًا وَلَوْ خَفِيفًا لِرَحِيلِ هَمِّه، رَغْمَ أَنَّ مَنْ شَكَا لَهُ لَا يَمْلِكُ لَهُ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا..فَكَيْفَ بِمَنْ جَعَلَ شَكْوَاه لِخَالِقِهِ وَمَوْلَاه القَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْء، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْء...

﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

---

(١) «العَذْبُ النَّمِيرُ» (١/ ٤٧).

(٢) «خَوَاطِر» (ص٢٢٥).

تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون].

«(الله) فعَّالٌ لِمَا يُرِيد، فَوْق كُلِّ شَيْء، وَمَعَ كُلِّ شَيْء، وَقَادِرٌ عَلَى كُلِّ شَيْء، وَمُقِيمٌ لِكُلِّ شَيْء، آمِرٌ نَاهٍ مُتَكَلِّمٌ بِكَلِمَاتِهِ الدِّينِيَّة وَالكَوْنِيَّة، أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْء، وَأَجْمَلُ مِنْ كُلِّ شَيْء، أَرْحَمُ الرَّاحِمِين، وَأَقْدَرُ القَادِرِين، وَأَحْكَمُ الحَاكِمِين»[1].

فَإِذَا عَقِلْتَ هَذَا فَهِمْتَ كَلَامَ نَبِيِّ الله يَعْقُوب لَمَّا قَالَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف][2].

شَكَا إِلَى الله وَلَمْ يَشْكُ مِنَ الله، وَمَنْ شَكَا إِلَى الله وَصَل، وَمَنْ شَكَا مِنَ الله انْفَصَل، وَلَمَّا شَكَا إِلَى الله، وَجَدَ الخَلَفَ مِنَ الله[3].

وَإِذَا عَرَتْكَ بَلِيَّةٌ فَاصْبِرْ لَهَا
صَبْرَ الكَرِيمِ فَإِنَّهُ بِكَ أَرْحَمُ

وَإِذَا شَكَوتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا
تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ[4]

(١) «الفَوَائِد» (ص١٨٠).

(٢) قَالَ الإِمَامُ الشَّوْكَانِي رَحِمَهُ اللهُ: «وَقَدْ ذَكَرَ المُفَسِّرُونَ أَنَّ الإِنْسَانَ إِذَا قَدَرَ عَلَى كَتْمِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ المَصَائِبِ كَانَ ذَلِكَ حُزْنًا، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى كَتْمِهِ كَانَ ذَلِكَ بَثًّا، فَالبَثُّ عَلَى هَذَا: أَعْظَمُ الحُزْنِ وَأَصْعَبُهُ» «فَتْحُ القَدِير» (٣/ ٧٠).

(٣) «اللَّطَائِفُ وَالإِشَارَات» (٣/ ٢٠٠).

(٤) الشَّكْوَى لِغَيْرِ الله:

=

- «كَانَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: **مَنْ أَرَادَ السَّعَادَةَ الأَبَدِيَّة فَلْيَلْزَمْ عَتَبَةَ العُبُودِيَّة**»[١].



=

«لَمَّا كَانَ الصَّبْرُ حَبْسُ اللِّسَانِ عَنِ الشَّكْوَى إِلَى غَيْرِ الله، وَالقَلْبِ عَنِ التَسَخُّطِ، وَالجَوَارِحِ عَنِ اللَّطْمِ وَشَقِّ الثِّيَابِ، وَنَحْوِهَا كَانَ مَا يُضَادُّهُ وَاقِعًا عَلَى هَذِهِ الجُمْلَة، فَمِنْهُ الشَّكْوَى إِلَى المَخْلُوقِ:

فَإِذَا شَكَا العَبْدُ رَبَّهُ إِلَى مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ فَقَدْ شَكَا مَنْ يَرْحَمُهُ إِلَى مَنْ لَا يَرْحَمُهُ، وَلَا تُضَادُّهُ الشَّكْوَى إِلَى الله..

وَأَمَّا إِخْبَارُ المَخْلُوقِ بِالحَالِ فَإِنْ كَانَ لِلْاسْتِعَانَةِ بِإِرْشَادِهِ أَوْ مُعَاوَنَتِهِ وَالتَّوَصُّلِ إِلَى زَوَالِ ضَرَرِهِ لَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي الصَّبْرِ، كَإِخْبَارِ المَرِيضِ لِلطَّبِيبِ بِشِكَايَتِهِ، وَإِخْبَارِ المَظْلُومِ لِمَنْ يَنْتَصِرُ بِهِ بِحَالِهِ، وَإِخْبَارِ المُبْتَلَى بِبَلَائِهِ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ فَرَجُهُ عَلَى يَدَيْهِ »« عُدَّةُ الصَّابِرِين» (ص٢٣٢).

وَقَالَ الإِمَامُ القُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا البَابِ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الأَلَمَ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى رَفْعِهِ، وَالنُّفُوسُ مَجْبُولَةٌ عَلَى وُجْدَانِ ذَلِكَ، فَلَا يُسْتَطَاعُ تَغْيِيرَهَا عَمَّا جُبِلَتْ عَلَيْه، وَإِنَّمَا كُلِّفَ العَبْدُ أَنْ لَا يَقَعَ مِنْهُ فِي حَالِ المُصِيبَةِ مَا لَهُ سَبِيلٌ إِلَى تَرْكِهِ كَالمُبَالَغَةِ فِي التَّأَوُّهِ وَالجَزَعِ الزَّائِدِ، كَانَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ خَرَجَ عَنْ مَعَانِي أَهْلِ الصَّبْرِ، **وَأَمَّا مُجَرَّدُ التَّشَكِّي فَلَيْسَ مَذْمُومًا حَتَّى يَحْصُلَ التَّسَخُّطُ لِلْمَقْدُورِ**» «فَتْحُ البَارِي» (١٠/ ١٢٤).

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (١/ ٤٣١).

النَّصِيحَةُ الخَامِسَةُ: الإِلْحَاحُ بِالدُّعَاءِ، وَكَثْرَةُ ذِكْرِ الله

«الدُّعَاءُ شَأْنُهُ فِي الإِسْلَامِ عَظِيمٌ، وَمَكَانَتُهُ فِيهِ سَامِيَةٌ، وَمَنْزِلَتُهُ مِنْهُ عَالِيَةٌ؛ إِذْ هُوَ أَجَلُّ العِبَادَات وَأَعْظَمُ الطَّاعَات وَأَنْفعُ القُرُبَات، وَلِهَذَا جَاءَتْ النُّصُوصُ الكَثِيرَةُ فِي كِتَابِ الله تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ المُبَيِّنَةُ لِفَضْلِهِ وَالمُنَوِّهَةُ بِمَكَانَتِهِ وَعِظَمِ شَأْنِهِ، وَالمُرَغِّبَةُ فِيهِ وَالحَاثَّةُ عَلَيْهِ، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ دَلَالَاتُ هَذِهِ النُّصُوص المُبَيِّنَة لِفَضْلِ الدُّعَاء، فَجَاءَ فِي بَعْضِهَا الأَمْرُ بِهِ وَالحَثُّ عَلَيْهِ، وَفِي بَعْضِهَا التَّحْذِيرُ مِنْ تَرْكِهِ وَالاسْتِكْبَارُ عَنْه، وَفِي بَعْضِهَا ذِكْرُ عِظَمِ ثَوَابِهِ وَكِبَرِ أَجْرِهِ عِنْدَ الله، وَفِي بَعْضِهَا مَدْحُ المُؤْمِنِينَ لِقِيَامِهِمْ بِهِ، وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِمْ بِتَكْمِيلِه، وَغَيْرُ ذَلِك مِنْ أَنْوَاعِ الدَّلَالَات فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ عَلَى عِظَمِ فَضْلِ الدُّعَاء»[1].

فَيَا أَيُّهَا المَهْمُوم الْهَجْ بِالدُّعَاء لِرَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاء فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَغْنَى الأَغْنِيَاء...

قِيل: «افْزَعْ إِلى الدُّعَاء تُفْتَحْ لك الأَبْوَاب، وتُزَل عَنْكَ الهُمُوم وَالاضْطِرَاب».

يَقُولُ الله تَعَالَى فِي الحَدِيثِ القُدُسِي:

«يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ

---

(١) «فِقْهُ الأَدْعِيَةِ وَالأَذْكَار» (٢/٧).

الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ»[١].

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

عَنْ البَرْقِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: «رَأَيْتُ امْرَأَةً بِالبَادِيَةِ، وَقَدْ جَاءَ البَرْدُ فَذَهَبَ بِزَرْعٍ كَانَ لَهَا، فَجَاءَ النَّاسُ يُعَزُّونَهَا، فَرَفَعَتْ طَرْفَهَا إِلَى السَّمَاء، وَقَالَتْ: اللَّهُمَّ أَنْتَ المَأْمُولُ لِأَحْسَنِ الخَلَف، وَبِيَدِكَ التَّعْوِيضُ عَمَّا تَلَف، فَافْعَلْ بِنَا مَا أَنْتَ أَهْلُهُ، فَإِنَّ أَرْزَاقَنَا عَلَيْكَ، وَآمَالُنَا مَصْرُوفَةٌ إِلَيْك.

قَالَ: فَلَمْ أَبْرَحْ، حَتَّى جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَجِلَّاء، فَحُدِّثَ بِمَا كَانَ، فَوَهَبَ لَهَا خَمْسَمِائَة دِينَار»[٢].

وَاعْلَمْ أَخِي الحَبِيب أَنَّ أَفْضَلَ الدَّعَوَات مَا كَانَتْ ثَابِتَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ دُعَاء الهَمِّ وَالحُزن، دُعَاء الكَرْب... وَغَيْرها مِنَ الدَّعَوَات.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَام ابْنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لَا رَيْبَ أَنَّ الأَذْكَار وَالدَّعَوَات مِنْ أَفْضَلِ العِبَادَات، وَالعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى التَّوْقِيف وَالاتِّبَاع لَا عَلَى الهَوَى وَالابْتِدَاع، فَالأَذْكَارُ **وَالأَدْعِيَةُ النَّبَوِيَّةُ هِيَ أَفْضَلُ**

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٥٧٧).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ رَجَب رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذَا الحَدِيثُ خرَّجَهُ مُسْلِمٌ مِنْ رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ العَزِيز، عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيد، عَنْ أَبِي إِدْرِيسٍ الخَوْلَانِي، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، وَفِي آخِرِهِ: قَالَ سَعِيدُ بْنُ عَبْدِ العَزِيز: كَانَ أَبُو إِدْرِيسٍ الخَوْلَانِي إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ»«جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَم» (ص٢٢١).

(٢) «الفَرَجُ بَعْدَ الشِدَّة» (١/ ١٨١).

مَا يَتَحَرَّاهُ الْمُتَحَرِّي مِنَ الذِّكْرِ وَالدُّعَاء، وَسَالِكُهَا عَلَى سَبِيلِ أَمَانٍ وَسَلَامَة، وَالفَوَائِدُ وَالنَّتَائِجُ الَّتِي تَحْصُلُ لَا يُعَبِّرُ عَنْهُ لِسَان، وَلَا يُحِيطُ بِهِ إِنْسَان، وَمَا سِوَاهَا مِنَ الأَذْكَار قَدْ يَكُونُ مُحَرَّمًا وَقَدْ يَكُونُ مَكْرُوهًا، وَقَدْ يَكُونُ فِيهِ شِرْكًا مِمَّا لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ أَكْثَرُ النَّاسِ وَهِي جُمْلَةٌ يَطُولُ تَفْصِيلُهَا».[1]

أ/ دُعَاءُ الغَمِّ وَالهَمِّ وَالحزْن:

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قال: «مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذا أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ حُزْنٌ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدُكَ وابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكِ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحداً مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلاَءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلاَّ أَذْهَبَ اللهُ ﷻ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ.

قَالَ: أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ».[2]

ب/ دُعَاءُ الكَرْب:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ

---

(١) «مَجْمُوعُ الفَتَاوَى» (٢٢/ ٥١٠).

(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ (٣٧١٢)، وَابْنُ حِبَّان (٩٧٢)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيحَة» (١٩٩).

العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»(١).

وَعَنْ أَسْمَاء بِنْتِ عُمَيس رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «أَلاَ أُعَلِّمُكِ كَلِمَاتٍ تَقُولِينَهُنَّ عِنْدَ الكَرْبِ أَوْ فِي الكَرْبِ: اللهُ اللهُ رَبِّي، لاَ أُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٢).

وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: «دَعَوَاتُ المَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ»(٣).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الحُوتِ: لاَ إله إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ»(٤).

ج/ الصَّلاَةُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ:

عَنِ الطُّفَيْلِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللهَ اذْكُرُوا اللهَ جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٤٦)، وَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٣٠).

(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (١٥٢٥)، وَابْنُ مَاجَه (٣٨٨٢)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٢٦٢٣).

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (٥٠٩٠)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٣٣٨٨).

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٣٥٠٥)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٣٣٨٣).

الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

قَالَ أُبَيٌّ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟

فَقَالَ: «مَا شِئْتَ».

قَالَ: قُلْتُ الرُّبُعَ؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قُلْتُ: النِّصْفَ؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قَالَ: قُلْتُ فَالثُّلُثَيْنِ؟

قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا؟

قَالَ: «**إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ**»[١].

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٢٤٥٧)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسِلَة الصَّحِيحَة» (٩٥٧).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وَسُئِلَ شَيْخُنَا أَبُو العَبَّاس عَنْ تَفْسِيرِ هَذَا الحَدِيث فَقَالَ: كَانَ لِأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ دُعَاء يَدْعُو بِهِ لِنَفْسِهِ فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ هَلْ يَجْعَلُ لَهُ مِنْهُ رُبْعَهُ صَلاَةً عَلَيْه، فَقَالَ: إِنْ زِدَّتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَك، فَقَالَ لَهُ: النِّصْف، فَقَالَ: إِنْ زِدَّتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَك إِلَى أَنْ قَالَ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا، أَيْ: أَجْعَلُ دُعَائِي كُلَّهُ صَلاَةً عَلَيْك، قَالَ: (إِذًا تُكْفَى هَمَّك، وَيُغْفَرُ

=

د/ الحَوْقَلَةُ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله):

لِهَذِهِ الكَلِمَة فَضَائِل عَظِيمَة وَآثَار مُجَرَّبَة نَافِعَة، قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ: «وَهَذِهِ الكَلِمَة لَهَا تَأْثِيرٌ عَجِيبٌ فِي مُعَالَجَةِ الأَشْغَالِ الصَّعْبَة، وَتَحمُّلِ المَشَاق، وَالدُّخولِ عَلَى المُلُوك، وَمَنْ يَخَافُ رَكُوبَ الأَهْوَال، وَلَهَا أَيْضًا تَأْثِيرٌ فِي دَفْعِ الفَقْر»[1].

هـ/ الاسْتِغْفَار[2]:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٖ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نُوح].

=

لَكَ ذَنْبُكَ)؛ لِأَنَّ مَنْ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَاةً صَلَّى الله عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، وَمَنْ صَلَّى الله عَلَيْهِ كَفَاهُ هَمَّهُ وَغَفَرَ لَهُ ذَنْبَهُ هَذَا مَعْنَى كَلَامِه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ» «جَلَاءُ الأَفْهَام» (٧٩).

(١) «الوَابِلُ الصَيِّب» (ص١٠٦).

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ:

«مَنْ قَالَ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله كَانَ دَوَاءً مِنْ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ دَاء، أَيْسَرُهَا الْهَمُّ»، رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي «الأَوْسَط» (٥٠٢٨)، وَالحَاكِم فِي «المُسْتَدْرَك» (١٩٩٠)، وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِي فِي «ضَعِيف التَّرْغِيب» (٩٧٠).

(٢) رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد (١٥٢٠)، وَابْنُ مَاجَه (٣٨١٩)، وَضَعَّفَهُ الأَلْبَانِي فِي «ضَعِيف ابْنِ مَاجَه» (٨٣٤).

يُؤْثَرُ عَنِ الحَسَنِ البَصْرِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَيْهِ الجَدْبَ فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ الله، وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ الفَقْرَ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ الله.

وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ جَفَافَ بُسْتَانِهِ، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ الله.

وَشَكَا إِلَيْهِ آخَرُ عَدَمَ الوَلَد، فَقَالَ: اسْتَغْفِرْ الله.

ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الآيَة»[١].

و/ **يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ:**

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا نَزَلَ بِهِ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ قَالَ: «يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»[٢].

ن/ **التَّعَوُّذُ بِالله مِنَ الهَمِّ:**

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ، وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»[٣].

---

(١) انْظُرْ: «الجَامِع لِأَحْكَام القُرْآن» (١٨/ ٣٠٢)، «فَتْح البَارِي» (١١/ ٩٨).

(٢) رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي «المُسْتَدْرَك» (١٨٧٥)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٤٧٩١).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٦٩).

«قَالَ الكَرْمَانِي: هَذَا الدُّعَاءُ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِم، لِأَنَّ أَنْوَاعَ الرَّذَائِلِ ثَلَاثَة: نَفْسَانِيَّة وَبَدَنِيَّة وَخَارِجِيَّة.

=

لَطِيفَةٌ:

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قَالَ بَعْضُ الشُّيُوخِ: إِنَّهُ لَيَكُونُ لِي إِلَى اللهِ حَاجَةٌ فَأَدْعُوهُ فَيَفْتَحُ لِي مِنْ لَذِيذِ مَعْرِفَتِهِ وَحَلَاوَةِ مُنَاجَاتِهِ مَا لَا أُحِبُّ مَعَهُ أَنْ يُعَجِّلَ قَضَاءَ حَاجَتِي خَشْيَةَ أَنْ تَنْصَرِفَ نَفْسِي عَنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تُرِيدُ إِلَّا حَظَّهَا فَإِذَا قُضِيَ انْصَرَفَتْ»[1].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الشِدَّةُ مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيْ الفَرَجِ، وَالبَلَاءُ مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيْ العَافِيَة، وَالخَوْفُ الشَّدِيدُ مُقَدِّمَةٌ بَيْنَ يَدَيْ الأَمْنِ، وَقَدْ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ الأُمُور النَّافِعَة المَحْبُوبَة إِنَّمَا يُدْخَلُ إِلَيْهَا مِنْ أَبْوَابِ أَضْدَادِهَا»[2].

= **فَالأُولَى**: بِحَسَبِ القِوَى الَّتِي لِلْإِنْسَان وَهِيَ ثَلَاثَة: العَقْلِيَّة وَالغَضَبِيَّة وَالشَّهْوَانِيَّة، فَالهَمُّ وَالحَزَنُ يَتَعَلَّقُ بِالعَقْلِيَّة، وَالجُبْنُ بِالغَضَبِيَّة، وَالبُخْلُ بِالشَّهْوَانِيَّة، وَالعَجْزُ وَالكَسَلُ بِالبَدَنِيَّة. **وَالثَّانِي**: يَكُونُ عِنْدَ سَلَامَةِ الأَعْضَاءِ وَتَمَامِ الآلَاتِ وَالقِوَى، وَالأَوَّلُ عِنْدَ نُقْصَانِ عُضْوٍ وَنَحْوِهِ، وَالضَّلَعُ وَالغَلَبَةُ بِالخَارِجِيَّة، فَالأَوَّلُ مَالِي، وَالثَّانِي جَاهِي، وَالدُّعَاءُ مُشْتَمِلٌ عَلَى جَمِيعِ ذَلِكَ»« فَتْحُ البَارِي »(١١/ ١٧٤).

(١) « مَجْمُوعُ الفَتَاوَى » (١٠/ ٣٣٣).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِين» (٣/ ٢٩٥).

النَّصِيحَةُ السَّادِسَةُ: السَّفَرُ فَإِنَّهُ قَدْ يُذْهِبُ الهُمُوم

الدَّوَامُ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مُوجِبَات الضَّجَر وَالمَلَل... وَمِنْ هُنَا يَنْبَغِي السَّيْر عَلَى مِنْهَاجِ التَّنْوِيع، لِتَجْدِيدِ نَشَاطِ النَّفْسِ وَالبَدَن، وَذَلِكَ بِأَنْ يُنَوِّعَ الإِنْسَانُ مَحطَّاتِ حَيَاتِه لِتكُونَ كَبَاقَةِ وُرُودٍ مُخْتَلِفَةِ الأَشْكَالِ مُتَبَاينَةِ الأَلْوَان، عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلّ مَا يَقُومُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ لَا يُخَالِفُ تَعَالِيمَ إِسْلَامِنَا الوَاسِعِ الجَمِيل»[1].

إِنَّ مَا يُسَمَّى بِالرُّوتِين وَهُوَ أَنْ يَتَعَوَّدَ المَرْءُ عَلَى بَرْنَامَجٍ يَوْمِيٍّ يَقُومُ بِهِ بِاسْتِمْرَارٍ قَدْ يُسَبِّبُ لَهُ ضَيْقَ الصَّدْرِ وَالكَآبَةِ وَالهَمِّ، لِذَا يَنْصَحُ أَهْلُ العِلْمِ أَنْ يُرَوِّحَ العَبْدُ عَلَى نَفْسِهِ بِالرِّحْلَةِ وَالسَّفَر[2].

---

(١) «الطَّرِيقُ المَيْسُور» (ص ٥٦).

(٢) «وَلِلسَّفرِ آدَابٌ مَعْرُوفَةٌ مَذْكُورَةٌ فِي مَنَاسِكِ الحَجِّ وَغَيْرِهَا:

مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَبْدَأَ بِرَدِّ المَظَالِمِ، وَقَضَاءِ الدُّيُونِ، وَإِعْدَادِ النَّفَقَةِ لِمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ، وَرَدِّ الوَدَائِع.

وَمِنْهَا: أَنْ يَخْتَارَ رَفِيقاً صَالِحاً، وَيوَدِّعِ الأَهْلَ وَالأَصْدِقَاء.

وَمِنْهَا: أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةَ الاسْتِخَارَة، وَأَنْ يَكُونَ يَوْمَ الخَمِيس بُكْرَةً.

وَمِنْهَا: أَنْ لَا يَمْشِي مُنْفَرِداً، وَأَنْ يَكُونَ أَكْثَرَ سَيْرِهُ بِاللَّيْلِ، وَلَا يُهْمِلُ الأَذْكَارَ وَالأَدْعِيَةَ إِذَا وَصَلَ مَنْزِلاً أَوْ عَلَا نَشْزاً أَوْ هَبَطَ وَادِياً.

وَمِنْهَا: أَنْ يَسْتَصْحِبَ مَعَهُ مَا فِيه مَصْلَحَتَهُ، كَالسِّوَاكِ، وَالمِشْطِ، وَالمِرْآةِ، وَالمِكْحَلَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ» «مُخْتَصَر مِنْهَاج القَاصِدِين» (٢/ ٥٨).

وَقَدْ قِيلَ قَدِيمًا: «السَّفَرُ يَشُدُّ الأَبْدَان، وَيُنَشِّطُ الكَسْلَان، وَيُسَلِّي الثَكْلَان، وَيَطْرُدُ الأَسْقَام، وَيُشَهِّي الطَّعَام، وَالمُسَافِرُ يَسْمَعُ العَجَائِب، وَيُكْسِبُ التَّجَارِب، وَيَجْلُبُ المَكَاسِب»[1].

عِلْمًا أنَّ الكَلَامَ يَتَنَزَّلُ عَلَى سَفرِ الطَّاعَةِ أَوْ السَّفَرِ المُبَاح، أَمَّا سَفَرُ المَعْصِيَةِ فَأَيُّ خَيْرٍ يُؤَمِّلُهُ العَبْدُ فِي مَعْصِيَةِ رَبِّهِ وَمَوْلَاه؟! وَاللهُ المُسْتَعَان، يَتَجَشَّمُ مَسِيرَ المَسَافَاتِ لِيَعْصِيَ رَبَّ البَرِيَّات فِي الخَلَوَات وَالجَلَوَات، وَالعِيَاذُ بِاللهِ.

قَالَ الحَافِظُ الرَّامَهُرْمُزِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي بَيَانِ فَوَائِدِ الرِّحْلَةِ فِي طَلَبِ العِلْمِ رَدًّا عَلَى مَنْ كَرِهَ الرِّحْلَةَ وَذَمَّهَا: «وَلَوْ عَرَفَ الطَّاعِنُ عَلَى أَهْلِ الرِّحْلَةِ مِقْدَارَ لَذَّةِ الرَّاحِلِ فِي رِحْلَتِهِ وَنَشَاطِهِ عِنْدَ فُصُولِهِ مِنْ وَطَنِهِ، وَاسْتِلْذَاذِ جَمِيعِ جَوَارِحِهِ، عِنْدَ تَصَرُّفِ الأَقْطَارِ وَغِيَاضِهَا، وَحَدَائِقِهَا وَرِيَاضِهَا، وَتَصَفُّحِ الوُجُوهِ، وَمُشَاهَدَةِ مَا لَمْ يَرَ مِنْ عَجَائِبِ البُلْدَانِ، وَاخْتِلَافِ الأَلْسِنَةِ وَالأَلْوَانِ، وَالاسْتِرَاحَةِ فِي أَفْيَاءِ الحِيطَانِ، وَظِلَالِ الغِيطانِ، وَالأَكْلِ فِي المَسَاجِدِ، وَالشُّرْبِ مِنَ الأَوْدِيَةِ، وَالنَّوْمِ حَيْثُ يُدْرِكُهُ اللَّيْلُ، وَاسْتِصْحَابِ مَنْ يُحِبُّهُ فِي ذَاتِ اللهِ بِسُقُوطِ الحِشْمَةِ، وَتَرْكِ التَّصَنُّعِ، **وَكُلِّ مَا يَصِلُ إِلَى قَلْبِهِ مِنَ السُّرُورِ عَنْ ظَفْرِهِ بِبُغْيَتِهِ،** وَوُصُولِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ، وَهُجُومِهِ عَلَى المَجْلِسِ الَّذِي شَمَّرَ لَهُ، وَقَطعِ الشُّقَّةَ إِلَيْهِ لِعِلْمِهِ أَنَّ لَذَّاتِ الدُّنْيَا مَجْمُوعَةٌ فِي مَحَاسِنِ تِلْكَ المَشَاهِدِ، وَحَلَاوَةِ تِلْكَ المَنَاظِرِ، وَاقْتِنَاصِ تِلْكَ الفَوَائِدِ، الَّتِي هِيَ عِنْدَ أَهْلِهَا أَبْهَى مِنْ زَهْرِ الرَّبِيعِ، وَأَنْفَس مِنْ ذَخَائِرِ العِقْيَانِ، مِنْ

(١) «الغُرَرُ الزَّاهِر» (ص٧).

حَيْثُ حُرِمَهَا الطَّاعِنُ وَأَشْبَاهُهُ»[١]

وَفِي هَذَا المَعْنَى قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرْبَعَةٌ تَهْدِمُ البَدَنَ: الهَمُّ، وَالحُزْنُ، وَالجُوعُ، وَالسَّهَرُ.

وَأَرْبَعَةٌ تُفْرِحُ: **النَّظَرُ إِلَى الخُضْرَةِ، وَإِلَى المَاءِ الجَارِي، وَالمَحْبُوبِ، وَالثِّمَارِ**»[٢].

تَغَرَّبْ عَنْ الأَوْطَانِ فِي طَلَبِ الْعُلا
وَسَافِرْ فَفِي الأَسْفَارِ خَمْسُ فَوَائِدِ
إِزَالَةُ هَمٍّ وَاكْتِسَابُ مَعِيشَةٍ
وَعِلْمٌ وَآدَابٌ وَصُحْبَةُ مَاجِدِ
فَإِنْ قِيلَ فِي الأَسْفَارِ ذُلٌّ وَمِهْنَةٌ
وَقَطْعُ الْفَيَافِي وَارْتِكَابُ الشَّدَائِدِ
فَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ لَهُ مِنْ حَيَاتِهِ
بِدَارِ هَوَانٍ بَيْنَ وَاشٍ وَحَاسِدِ

وَلَا بَأْسَ أَنْ يَمْزَحَ المَرْءُ مَعَ إِخْوَانِهِ وَأَحْبَابِهِ، وَأَقَارِبِهِ وَجِيرَانِهِ.. يَمْحُو بِهِ

(١) «المُحَدِّث الفَاصِل» (ص٢١٨).

(٢) «زَادُ المَعَاد» (٤/ ٤١٢).

هُمُومَ الدُّنْيَا وَغُمُومَهَا، لِتَحُلَّ البَسَمَات وَالضَّحَكَات، مَحْفُوفَةً بِالوُدِّ وَالحُبِّ وَالقُرْبِ، وَقَدْ أَلْجَمَهُ بِلِجَامِ الشَّرْعِ المُطَهَّر.

وَقَدْ قَالَ أَهْلُ العِلْمِ: «أَنْ يَنْفِيَ بِالْمِزَاحِ مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنْ سَأَمٍ، وَأَحْدَثَ بِهِ مِنْ هَمٍّ.

فَقَدْ قِيلَ: لَا بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْفُثَ.

وَأَنْشَدت لِأَبِي الْفَتْحِ الْبُسْتِيِّ:

أَفِدْ طَبْعَكَ الْمَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً
يُجَمُّ وَعَلِّلْهُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَزْحِ
وَلَكِنْ إِذَا أَعْطَيْتَهُ الْمَزْحَ فَلْيَكُنْ
بِمِقْدَارِ مَا تُعْطِي الطَّعَامَ مِنَ الْمِلْحِ

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَمْزَحُ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ»[١].

فَالقُلُوبُ إِذَا كَلَّتْ مَلَّتْ.. فَكَسَلَتْ..

فَيَرْحَلُ الأَمَلُ المُشَجِّعُ عَلَى العَمَل.

وَقَدْ وَرَدَتْ العَدِيدُ مِنَ الآثَارِ فِي هَذَا المَعْنَى سَاقَهَا الإِمَام ابْنُ عَبْدِ البَرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]:

قَالَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالمَوْعِظَةِ مَخَافَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا».

---

(١) «أَدَبُ الدُّنْيَا وَالدِّين» (ص٥٠٣).

(٢) فِي كِتَابِهِ: «بَهْجَةُ المُجَالِس» (١١٥).

وَكَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «إِنَّ هَذِهِ القُلُوب تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأَبْدَان، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الحِكْمَة».

وَقَالَ أَيْضًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «نَبِّهْ بِالتَّفَكُّرِ قَلْبَك، وَجَافِ عَنِ النَّوْمِ جَنْبَك، وَاتَّقِ اللهَ رَبَّك».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إِنِّي لَأَسْتَجِمُّ قَلْبِي بِشَيْءٍ مِنَ اللَّهْوِ، لِيَكُونَ أَقْوَى لِي عَلَى الحَقِّ».

قَال عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَرِيحُوا القُلُوبَ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا أُكْرِهَ عَمِيَ».

وَقَالَ أَيْضاً رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنَّ لِلْقُلُوبِ شَهْوَةً وَإِقْبَالًا، وَفَتْرَةً وَإِدْبَاراً، فَخُذُوهَا عِنْدَ شَهَوَاتِهَا وَإِقْبَالِهَا، وَذَرُوهَا عِنْدَ فَتْرَتِهَا وَإِدْبَارِهَا».

وَكَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: «المَلَالَةُ تَفْسَخُ المَوَدَّة، وَتُوَلِّدُ البِغْضَة، وَتُنَغِّصُ اللَّذَّة».

إِنَّ المُسْلِمَ لَيَحْتَسِبُ الأَجْرَ وَهُوَ يُرَوِّحُ عَلَى أَخِيهِ المَهْمُوم وَلَوْ بِالمُزَاح المُبَاح.

وَرَدَ فِي الحَدِيث: «ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا، قَالَ: **فَقَالَ: لَأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ** النَّبِيَّ ﷺ»[1].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «وَفِيهِ أَنَّ المَرْءَ إِذَا رَأَى صَاحِبَهُ مَهْمُومًا اسْتُحِبَّ لَهُ أَنْ يحدِّثَه بِمَا يُزِيل هَمَّهُ وَيُطَيِّبَ نَفْسَه»[2].

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥١٩١)، وَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٧٨)، وَاللَّفْظُ لَهُ.

(٢) «فَتْحُ البَارِي» (٩/ ٢٩٢).

تَنْبِيهٌ:

«قَالَ العُلَمَاءُ: المُزَاحُ المَنْهِيُّ عَنْهُ، هُوَ الَّذِي فِيهِ إِفْرَاطٌ وَيُدَاوِمُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الضَّحِكَ وَقَسْوَةَ القَلْبِ، وَيَشْغُلُ عَنْ ذِكْرِ الله تَعَالَى وَالفِكْرِ فِي مُهِمَّاتِ الدِّينِ، وَيَؤُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَوْقَاتِ إِلَى الإِيذَاءِ، وَيُورِثُ الأَحْقَادَ، وَيُسْقِطُ المَهَابَةَ وَالوَقَار.

فَأَمَّا مَا سَلِمَ مِنْ هَذِهِ الأُمُور فَهُوَ المُبَاح الَّذِي كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَفْعَلُهُ»[1].



(١) «الأَذْكَار» (ص٣٢٧).

النَّصِيحَةُ السَّابِعَةُ: مَعْرِفَةُ حَقِيقَةِ الدُّنْيَا

يُذْكَرُ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: صِفْ لَنَا الدُّنْيَا، فَقَالَ: «أَوَّلُهَا عَنَاءٌ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ، حَلَالُهَا حِسَابٌ، وَحَرَامُهَا عَذَابٌ، مَنْ صَحَّ فِيهَا زَمِنَ، وَمَنْ مَرِضَ فِيهَا نَدِمَ، وَمَنْ اسْتَغْنَى فِيهَا فُتِنَ، وَمَنْ افْتَقَرَ فِيهَا حَزَنَ، مَنْ سَاعَاهَا فَاتَتْهُ، وَمَنْ قَعَدَ عَنْهَا أَتَتْهُ، وَمَنْ نَظَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِهَا بَصُرَتْهُ.

وَعَنْهُ: الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍّ، لَا دَارُ مَقَرٍّ، النَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَوْبَقَهَا، وَرَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا»[1].

أَيُّهَا الأَخُ اللَّبِيب الحَبِيب لَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَ الدُّور وَتَبْنِيَ القُصُور، إِنَّمَا لِعِبَادَةِ العَزِيزِ الغَفُور، فَتَعْمَل لِمَا فِي القُبُور، وَبَعْد البَعْثِ وَالنُّشُور، قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

قَالَ الإِمَامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«هَذا تَصْرِيحٌ بِأَنَّهُمْ خُلِقوا لِلعِبَادَةِ، فَحَقَّ عَلَيْهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ وَالإِعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا بالزَّهَادَةِ، فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لاَ مَحَلُّ إِخْلاَدٍ، وَمَرْكَبُ عُبُورٍ لاَ مَنْزِلُ حُبُورٍ، وَمَشْرَعُ انْفِصَامٍ لاَ مَوْطِنُ دَوَامٍ، فَلِهذا كَانَ الأَيْقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُمُ الْعُبَّادُ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُمُ الزُّهّادُ ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ

(١) «الآدَابُ الشَّرْعِيَّة» (١/ ٣٣٤).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يُونُس].

وَالآيَاتُ فِي هَذَا المَعْنَى كَثِيرَةٌ.

وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ:

إِنَّ للهِ عِبَـــادًا فُطَنَـــا
طَلَّقُـــوا الـــدُّنْيَا وخَـــافُوا الفِتَنَـــا
نَظَـــروا فيهَـــا فَلَمَّـــا عَلِمُـــوا
أَنَّهَـــا لَيْسَـــتْ لِحَـــيٍّ وَطَنَـــا
جَعَلُوهـــا لُجَّـــةً واتَّخَـــذُوا
صَـــالِحَ الأعمـــالِ فيهـــا سُـــفُنا»[1].

لَقَدْ وُصِفَتْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي القُرْآنِ بِعِدَّةِ أَوْصَافٍ مِنْهَا:

قَالَ الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأَنْعَام].

وَقَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرَّعْد].

(١) «رِيَاضُ الصَّالِحِين» (ص٤٠).

وَقَالَ الله ﷻ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه].

وَقَالَ الله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص].

وَقَالَ الله ﷻ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد][1].

إِخْوَانِي الدُّنْيَا غَرَّارَة، غَدَّارَةٌ خَدَّاعَةٌ مَكَّارَة، تَظُنُّ مَقِيمَة وَهِي سَيَّارَة، وَمُصَالِحَة وَقَدْ شَنَّتْ الغَارَة[2]..

---

(١) تَنْبِيهُ النَّبِيه: بَعْضُ إِخْوَانِنَا وَهُوَ يُطَالِعُ وَيَقْرَأُ مِثْلَ هَذِهِ الرَّسَائِلِ وَالكُتُبِ رُبَّمَا إِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فَضْلًا عَنْ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ الله ﷻ قَدْ لَا يَقْرَؤُهَا أَصْلًا، فَأَغْتَنِمُهَا فُرْصَةً لِأُذَكِّرَهُمْ بِالثَّوَابِ العَظِيمِ وَالأَجْرِ الكَبِيرِ مِنَ الله الرَّحِيم، فَقَدْ صَحَّ الخَبَر عَنْ سَيِّد البَشَر مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لاَ أَقُولُ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ حرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلاَمٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ» رَوَاهُ التِّرمِذِي (٢٩١٠)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح التَّرْغِيب» (١٤١٦).

(٢) «المُدْهِش» (ص١٧٤).

فَهِيَ لَا تَسْتَحِقُّ أَنْ تُلْهِيك أَوْ تُغْرِيك أَوْ تُنْسِيك...

وَاسْمَعْ أَيُّهَا الحَبِيب لِهَذَا الوَصْفِ العَجِيب مِنَ النَّبِيِّ الحَبِيب لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ الْعَالِيَةِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَهُ فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[1] مَيِّتٍ فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ».

فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟

قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ».

قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟

فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»[2].

أَخِي الحَبِيب أَلَيْسَ مِنْ أَكْثَرِ وَأَكْبَرِ أَسْبَابِ هُمُومِنَا وَغُمُومِنَا وَأَحْزَانِنَا هَذِهِ الدَّنْيَا؟!

فَبَعْضُ حَقِيقَتِهَا قَدْ سِيقَتْ لَكَ وَأَوْصَافَهَا وُصِفَتْ لَك، وَبَعْضُ مَفَاتِنِهَا قُرِّبَتْ لَك، فَهَلْ تَسْتَحِقُّ ذَلِك؟

كَلَّا وَاللهِ...

الدُّنْيَا كُلُّهَا قَلِيل، وَالَّذِي بَقِيَ مِنْهَا قَلِيل، وَالَّذِي لَكَ مِنَ البَاقِي قَلِيل، وَلَمْ يَبْقَ

---

(١) «(بِجَدْيٍ أَسَكَّ) أَيْ: صَغِيرِ الأُذُنَيْن» «شَرْح النَّوَوِي عَلَى صَحِيح مُسْلِم» (١٨/ ٩٣).

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٥٧).

مِنْ قَلِيلِكَ إِلَّا قَلِيل، وَقَدْ أَصْبَحتَ فِي دَارِ العَزَاء، وَغَدًا تَصِيرُ إِلَى دَارِ الجَزَاء، فَاشْتَرِ نَفْسَكَ لَعَلَّكَ تَنْجُو»[١].

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

رُوِيَ أَنَّ ابْنَ السَّمَّاكِ دَخَلَ عَلَى الرَّشِيدِ يَوْمًا فَاسْتَسْقَى، فَأُتِيَ بِكُوزٍ، فَلَمَّا أَخَذَهُ قَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ مُنِعْتَ هَذِهِ الشَّرْبَةَ بِكَمْ كُنْتَ تَشْتَرِيهَا؟

قَالَ: بِنِصْفِ مُلْكِي.

قَالَ: اشْرَبْ هَنَّاكَ اللهُ.

فَلَمَّا شَرِبَهَا قَالَ: أَسْأَلُكَ لَوْ مُنِعْتَ خُرُوجَهَا مِنْ بَدَنِكَ، بِمَاذَا كُنْتَ تَشْتَرِي خُرُوجَهَا؟

قَالَ: بِجَمِيعِ مُلْكِي.

فَقَالَ: إِنَّ مُلْكًا قِيمَتُهُ شَرْبَةُ مَاءٍ لَجَدِيرٌ أَنْ لا يُنَافَسَ فِيهِ.

قَالَ: فَبَكَى هَارُونُ»[٢].

أَمَّا حَالُ النَّبِيِّ ﷺ مَعَ الدُّنْيَا فَعَلَيْنَا أَنْ نَسْتَحْضِرَهُ مِرَارًا وَتِكْرَارًا لَعَلَّنَا نَتَأَمَّلُهُ فَنُغَيِّرَ مِنْ أَحْوَالِنَا وَأَعْمَالِنَا وَأَقْوَالِنَا فِيمَا يُرْضِي رَبَّنَا:

---

(١) «سِيَرُ أَعْلَام النُّبَلَاء» (٨/ ٣٣٠).

(٢) «تَارِيخُ الإِسْلَام » (٤/ ١٠٣٠).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَى حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فقَالَ يَا نَبِيَّ اللهِ لَوْ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوْثَرَ مِنْ هَذَا.

فَقَالَ: «مَا لِي وَلِلدُّنْيَا مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[١].

«فتَأَمَّل حُسْنَ هَذَا المِثَال وَمطَابَقَتَهُ لِلْوَاقِع سَوَاء؛ فَإِنَّهَا فِي خُضْرَتِهَا كَشَجَرَةٍ وَفِي سُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَقَبْضِهَا شَيْئًا فَشَيْئًا كَالظِلِّ وَالعَبْد مُسَافِرٍ إِلَى رَبِّه، وَالمُسَافِر إِذَا رَأَى شَجَرَةً فِي يَوْمٍ صَائِفٍ لَا يُحْسِنُ بِهِ أَنْ يَبْنِيَ تَحْتَهَا دَارًا وَلَا يَتَّخِذُهَا قَرَارًا بَلْ يَسْتَظِلُ بِهَا بِقَدْرِ الحَاجَة وَمَتَى زَادَ عَلَى ذَلِكَ انْقَطَعَ عَنِ الرِّفَاقِ»[٢].

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامِ نَائِمٍ
وَمَا خَيْرُ عَيْشٍ لَا يَكُونُ لِدَائِمِ
تَأَمَّلْ إِذَا مَا نِلْتَ بِالأَمْسِ لَذَّةً
فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمِ

أَقْوَالٌ جَمِيلَةٌ عَنِ الدُّنْيَا[٣]:

قِيلَ: «الدُّنْيَا أَشْبَهُ شَيْءٍ بِظِلِّ الغَمَام، وَحُلْمِ النِّيَام».

(١) رَوَاهُ أَحْمَد (٢٧٤٤)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «السِّلْسَلة الصَّحِيحَة» (٤٣٩).
(٢) «عُدَّةُ الصَّابِرِين» (ص١٩٧).
(٣) انْظُرْ: «مِفْتَاح الأَفْكَار» (ص١٣٧).

قِيلَ: «الدُّنْيَا دَحْضُ مَزَلَّة، وَدَارُ مَذَلَّة».

قِيلَ: «الدُّنْيَا تُنَالُ بِالمَال، وَالآخِرَةُ بِالأَعْمَال».

قِيلَ: «الدُّنْيَا دَارُ الْتِوَاء لَا دَارُ اسْتِوَاء».

قِيلَ: «الدُّنْيَا حَلَالُهَا حِسَاب، وَحَرَامُهَا عَذَاب».

قِيلَ: «الدُّنْيَا وَاجِدُهَا سَكْرَان، وَفَاقِدُهَا حَيْرَان».



النَّصِيحَةُ الثَّامِنَةُ: ذِكْرُ المَوْتِ

اعْلَمْ أَخِي الحَبِيب أَنَّ الدُّنْيَا سَفَرٌ مِنَ الأَسْفَار لَيْسَتْ دَارَ إِقَامَةٍ وَقَرَار، تَبْدَأُ الرِّحْلَةُ مِنْهَا بِأَمْرٍ لَابُدَّ مِنْهُ: يُدْرِكُ الصَّغِير وَالكَبِير، العَزِيز وَالحَقِير، المَأْمُور وَالأَمِير، الذَّكَر وَالأُنْثَى...

إِنَّهُ **المَوْتُ**: «أَمْرٌ كُبَّار لِمَنْ أَنْجَدَ وَأَغَار، وَكَأْسٌ تُدَار فِيمَنْ أَقَامَ أَوْ سَار، وَبَابٌ تَسُوقُكَ إِلَيْه يَدُ الأَقْدَار، وَيُزْعِجُكَ فِيهِ حُكْمُ الاضْطِرَار ويَخْرُجُ بِكَ إِمَّا إِلَى الجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّار.

خَبَرٌ يَصُمُّ الأَسْمَاع، ويُغَيِّرُ الطِّبَاع، وَيُكْثِرُ مِنَ الآلَامِ وَالأَوْجَاع.

وَاعْلَمُوا أَنَّه لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي المَوْتِ إِلاَّ الإِعْدَام وَانْحِلَال الأَجْسَام، ونِسْيَانُكَ أَخْرَى اللَّيَالِي وَالأَيَام، لَكَانَ وَالله لِأَهْلِ اللَّذَّات مُكَدِّرًا وَلِأَصْحَابِ النَّعِيمِ مُغَيِّرًا وَلِأَرْبَابِ العُقُولِ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي هَذِهِ الدَّارِ زَاجِرًا وَمُنَفِّرًا..»[1].

فَالكُلُّ سَيَمُوت إِلَّا ذُو العِزَّةِ وَالجَبَرُوت...

المَــوْتُ كَـــأْسٌ وَكُـــلُّ النَّـــاسِ شَـــارِبُه

فَلَيْـــتَ شِـــعْرِي بَعْـــدَ المَــوتِ مَـــا الـــدَّار

(١) «العَاقِبَةُ فِي ذِكْرِ المَوْت» (ص٢٦).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ**»(١).

فَالطَّاعَاتُ تَتَفَرَّعُ عَنْ ذِكْرِ المَوْت، وَالمَعَاصِي تَتَفَرَّعُ عَن نِّسْيَانِه..

«كَفَى بِالمَوْتِ مُقَرِّحًا لِلْقُلُوب، وَمُبْكِيًا لِلْعُيُون، وَمُفَرِّقًا لِلْجَمَاعَات، وَهَادِمًا لِلَّذَات، وَقَاطِعًا لِلأُمْنِيَات، فَهَلْ تَفَكَّرْتَ يَا ابْنَ آدَم فِي يَوْمِ مَصْرَعِك، وَانْتِقَالِكَ مِنْ مَوْضِعِك؟! وَإِذَا نُقِلْتَ مِنْ سَعَةٍ إِلَى ضِيق، وَخَانَكَ الصَّاحِبُ وَالرَّفِيق، وَهَجَرَكَ الأَخُ وَالصَّدِيق، وَأُخَذْتَ مِنْ فِرَاشِكَ وَغِطَائِكَ إِلَى عَرَر، وَغَطَّوْكَ مِنْ بَعْدِ لِينِ لِحَافِكَ بِتُرَابٍ وَمَدَر، فَيَا جَامِعَ المَال، وَالمُجْتَهِد فِي البُنْيَان لَيْسَ لَكَ وَالله مِنَ مَالٍ إِلَّا الأَكْفَان، بَلْ هِيَ وَالله لِلْخَرَابِ وَالذَّهَاب، وَجِسْمُكَ لِلتُّرَاب وَالمَآب.

فَأَيْنَ الَّذِي جَمَعْتَهُ مِنَ المَال؟ فَهَلْ أَنْقَذَكَ مِنَ الأَهْوَال؟ كَلَّا بَلْ تَرَكْتَهُ إِلَى مَنْ لَا يَحْمَدُك، وَقَدِمْتَ بِأَوْزَارِكَ عَلَى مَنْ لَا يَعْذُرُك..»(٢).

قَـدْ مَضَـى العُمُـرُ وَفَـاتَ يَـا أَسِـيرَ الغَفَـلَات

حَصِّـلِ الـزَّادَ وَبَـادِرْ مُسْـرِعًا قَبْـلَ الفَـوَات

فَـإِلَى كَـمْ ذَا التَّعَـامِي عَـنْ أُمُـورٍ وَاضِـحَات

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٢٣٠٧)، وَابْنُ مَاجه (٤٢٥٨)، وَأَحْمَد (٧٩٢٥) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (١٢١٠).

(٢) «التَّذْكِرَة فِي أَحْوَالِ المَوْتَى وَأُمُورِ الآخِرَة» (ص ١١).

وَإِلَـى كَـمْ أَنْـتَ غَـارِقٌ فِـي بِحَـارِ الظُّلُمَـات
لَـمْ يَلِـنْ قَلْبُـكَ أَصْـلًا بِـالزَّوَاجِرِ وَالعِظَـات
بَيْنَمَـا الإِنْسَـانُ يَسْـأَلُ عَـنْ أَخِيـهِ قِيـلَ مَـات
وَتَـرَاهُمْ حَمَلُـوهُ سُـرْعَةً لِلْفَلَـوَات
أَهْلُـهُ يَبْكُـوا عَلَيْـهِ حَسْـرَةً بِـالعَبَرَات
أَيْـنَ مَـنْ قَـدْ كَـانَ يَفْخَـرُ بِالجِيَـادِ الصَّـافِنَات
وَلَـهُ مَـالٌ جَزِيـلٌ كَالجِبَـالِ الرَّاسِـيَات
سَـارَ عَنْهَـا رَغْـمَ أَنْـفٍ لِلْقُبُـورِ المُوحِشَـات
كَـمْ بِهَـا مِـنْ طُـولِ مُكْـثٍ مِـنْ عِظَـامٍ نَـاخِرَات
فَـاغْنَمْ العُمْـرَ وَبَـادِرْ بِـالتُّقَى قَبْـلَ المَمَـات
وَاطْلُـبْ الغُفْـرَانَ مِمَّـنْ تُرْتَجَـى مِنْـهُ الهِبَـات

وَمِمَّا أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ أُمَّتَهُ إِلَى زِيَارَةِ القُبُورِ لِيَتَذَكَّرُوا وَيَتَفَكَّرُوا فِي حَالِهِمْ وَمَآلِهِمْ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**زُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ**»[1].

«يَعْتَبِرُ بِمَنْ صَارَ تَحْتَ التُّرَابِ، وَانْقَطَعَ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَحْبَابِ، بَعْدَ أَنْ قَادَ الْجُيُوشَ وَالْعَسَاكِرِ، وَنَافَسَ الْأَصْحَابَ وَالْعَشَائِر، وَجَمَعَ الْأَمْوَالَ وَالذَّخَائِر،

(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجه (١٥٦٩)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٣٥٧٧).

فَجَاءَهُ الْمَوْتُ فِي وَقْتٍ لَمْ يَحْتَسِبْهُ، وَهَوْلٍ لَمْ يَرْتَقِبْهُ.

فَلْيَتَأَمَّلِ الزَّائِرُ حَالَ مَنْ مَضَى مِنْ إِخْوَانِهِ، وَدَرَجَ مِنْ أَقْرَانِهِ الَّذِينَ بَلَغُوا الْآمَالَ، وَجَمَعُوا الْأَمْوَالَ، كَيْفَ انْقَطَعَتْ آمَالُهُمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ، وَمَحَا التُّرَابُ مَحَاسِنَ وُجُوهِهِمْ، وَافْتَرَقَتْ فِي الْقُبُورِ أَجْزَاؤُهُمْ، وَتَرَمَّلَ مِنْ بَعْدِهِمْ نِسَاؤُهُمْ، وَشَمِلَ ذُلُّ الْيُتْمِ أَوْلَادَهُمْ، وَاقْتَسَمَ غَيْرُهُمْ طَرِيفَهُمْ وَتِلَادَهُمْ، وَلْيَتَذَكَّرْ تَرَدُّدَهُمْ فِي الْمَآرِبِ، وَحِرْصَهُمْ عَلَى نَيْلِ الْمَطَالِبِ، وَانْخِدَاعَهِمْ لِمُوَاتَاةِ الْأَسْبَابِ، وَرُكُونَهُمْ إِلَى الصِّحَّةِ وَالشَّبَابِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَيْلَهُ إِلَى اللَّهْوِ وَاللَّعِبِ كَمَيْلِهِمْ، وَغَفْلَتَهِ عَمَّا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ الْفَظِيعِ، وَالْهَلَاكِ السَّرِيعِ، كَغَفْلَتِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا بُدَّ صَائِرٌ إِلَى مَصِيرِهِمْ، وَلْيُحْضِرْ بِقَلْبِهِ ذِكْرَ مَنْ كَانَ مُتَرَدِّدًا فِي أَغْرَاضِهِ، وَكَيْفَ تَهَدَّمَتْ رِجْلَاهُ، وَكَانَ يَتَلَذَّذُ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا خُوِّلَهُ وَقَدْ سَالَتْ عَيْنَاهُ، وَيَصُولُ بِبَلَاغَةِ نُطْقِهِ وَقَدْ أَكَلَ الدُّودُ لِسَانَهُ، وَيَضْحَكُ لِمُوَاتَاةِ دَهْرِهِ وَقَدْ أَبْلَى التُّرَابُ أَسْنَانَهُ، وَلْيَتَحَقَّقْ أَنَّ حَالَهُ كَحَالِهِ، وَمَآلَهُ كَمَآلِهِ، وَعِنْدَ هَذَا التَّذَكُّرِ وَالِاعْتِبَارِ تَزُولُ عَنْهُ جَمِيعُ الْأَغْيَارِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَيُقْبِلُ عَلَى الْأَعْمَالِ الْأُخْرَوِيَّةِ، فَيَزْهَدُ فِي دُنْيَاهُ، وَيُقْبِلُ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَاهُ، وَيَلِينُ قَلْبُهُ، وتخشع جوارحه»[1].

لا تحزن: فَإِنَّهُ إِذَا نَزَلَتْ بِكَ فَاقَة أَوْ مُصِيبَة، فَعَلَيْكَ أَنْ تَصْبِرَ وَتَحْتَسِب وَتَرْضَى بِقَضَاءِ الله ﷻ، فَإِذَا طَالَتْ المُدَّة وَلَمْ يَأْتِ الفَرَج فَلَا نُجَدِّد الأَحْزَان؛

---

(١) «الجَامِعُ لِأَحْكَامِ القُرْآن» (٢٠/ ١٧٢).

لِأَنَّنَا جَمِيعًا سَنَمُوتُ وَسَنَتْرُكُ الدُّنْيَا بِجِرَاحِهَا وَأَفْرَاحِهَا، فَإِنْ لَمْ تَذْهَبْ الأَحْزَان، فَأَنْتَ سَتُغَادِرُ الدُّنْيَا وَتُودِّعُ الأَحْزَان؛ لِتَلْقَى الرَّحِيمَ الرَّحْمَن بِصَبْرِكَ وَإِيمَانِك وَرِضَاكَ بِقَضَائِهِ فَيُعَوِّضُكَ الخَيْرَ كُلَّه فِي جَنَّتِهِ الَّتِي أَعَدَّهَا لِعِبَادِهِ الصَّالِحِين[1].

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥].

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ كَثِير رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهَذِهِ الآيَةُ فِيهَا **تَعْزِيَة لِجَمِيع النَّاس**، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى أَحَدٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ حَتَّى يَمُوت، فَإِذَا انْقَضَتْ المُدَّةُ وَفَرَغَتْ النُّطْفَةُ الَّتِي قَدَّرَ الله وُجُودَهَا مِنْ صُلْبِ آدَم وَانْتَهَتْ البَرِيَّةُ أَقَامَ الله القِيَامَةَ وَجَازَى الخَلَائِقَ بِأَعْمَالِهَا جَلِيلهَا وَحَقِيرهَا، كَثِيرهَا وَقَلِيلهَا، كَبِيرهَا وَصَغِيرهَا، فَلا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّة؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾»[2].

وَقَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ فِيهَا التَّزْهِيدُ فِي الدُّنْيَا بِفَنَائِهَا وَعَدَمِ بَقَائِهَا، وَأَنَّهَا مَتَاعُ الغُرُور، تَفْتِنُ بِزُخْرُفِهَا، وَتَخْدَعُ بِغُرُورِهَا، وَتَغُرُّ بِمَحَاسِنِهَا، ثُمَّ هِيَ مُنْتَقِلَةٌ، وَمُنْتَقَلٌ عَنْهَا إِلَى دَارِ القَرَار، الَّتِي تُوَفَّى فِيهَا النُّفُوسُ

---

(١) «وَابْتَسِمْ لِلْحَيَاة» (ص٣١).

(٢) «تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيم» (٢/ ١٧٧).

مَا عَمِلَتْ فِي هَذِهِ الدَّار مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ»[١].

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

قَالَ يَزِيدُ الرَّقَاشِيّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلْتُ عَلَى عَابِدٍ بِالبَصْرَةِ وَإِذَا أَهْلُ بَيْتِهِ حَوْلَهُ فَإِذَا هُوَ مَجْهُودٌ قَدْ أَجْهَدَهُ الاجْتِهَاد.

قَالَ: فَبَكَى أَبُوهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ مَا الَّذِي يُبْكِيكَ؟

قَالَ: يَا بُنَيَّ أَبْكِي فَقْدَكَ وَمَا أَرَى مِنْ جَهْدِكَ.

قَالَ: فَبَكَتْ أُمُّهُ، فَقَالَ: أَيَّتُهَا الوَالِدَةُ الشَّفِيقَةُ الرَّفِيقَةُ مَا الَّذِي يُبْكِيكِ؟

قَالَتْ: يَا بُنَيَّ أَبْكِي فِرَاقَكَ وَمَا أَتَعَجَّلُ مِنَ الوَحْشَةِ بَعْدَكَ.

قَالَ: فَبَكَى أَهْلُهُ وَصِبْيَانُهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ اليَتَامَى بَعْدَ قَلِيلٍ مَا الَّذِي يُبْكِيكُمْ؟

قَالُوا: يَا أَبَانَا نَبْكِي فِرَاقَكَ وَمَا نَتَعَجَّلُ مِنَ اليُتْمِ بَعْدَكَ.

قَالَ: فَقَالَ: أَقْعِدُونِي أَقْعِدُونِي أَلَا أَرَى كُلَّكُمْ يَبْكِي لِدُنْيَاي أَمَا فِيكُمْ مَنْ يَبْكِي لِآخِرَتِي؟!

أَمَا فِيكُمْ مَنْ يَبْكِي لِمَا يَلْقَاهُ فِي التُّرَابِ وَجْهِي؟!

أَمَا فِيكُمْ مَنْ يَبْكِي لِمُسَاءَلَةِ مُنْكَرٍ وَنَكِيرٍ وَإِيَّاي؟!

أَمَا فِيكُمْ مَنْ يَبْكِي لِوُقُوفِي بَيْنَ يَدَيْ الله رَبِّي؟!

---

(١) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص١٥٩).

قَالَ: ثُمَّ صَرَخَ صَرْخَةً فَمَاتَ»[١].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»[٢].

فَاعْلَمْ أَخِي الفَاضِل أَنَّ دَوَامَ الحَالِ مِنَ المُحَال، فَاسْتَعِد لِرَحِيلِكَ مِنَ الدُّنْيَا وَلِقَاء الكَبِير المُتَعَال.. وَفَّقَنَا الله وَإِيَّاكُمْ لِكُلِّ خَيْر.

فَبِالمَوْتِ يَسْتَرِيحُ العَبْدُ المُؤْمِنُ مِنْ هُمُومِهَا وَغُمُومِهَا وَأَحْزَانِهَا لِيَنْعَم بِالنَّعِيم المَوْعُود بِإِذْنِ الله.

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الأَنْصَارِيِّ أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ: «مُسْتَرِيحٌ، وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ».

قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟

قَالَ: «الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ»[٣].

فَالدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ؛ فَبِمَوْتِهِ يَخْرُجُ مِنْ سِجْنِهِ إِلَى لِقَاءِ رَبِّه وَدُخُولِ جَنَّتِهِ بِإِذْن الله حَيْث النَّعِيم المُقِيم.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ

---

(١) «صِفَةُ الصَّفْوَة» (٤/ ١٨).

(٢) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّان (٢٩٩٣)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (١٢١١).

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٥١٢)، وَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٩٥٠).

الْكَافِرِ»[١].

قِصَّةٌ جَمِيلَةٌ:

«ذَكَرُوا أَنَّ الحَافِظَ ابْنَ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا كَانَ قَاضِي القُضَاة مَرَّ يَوْمًا بِالسُّوقِ فِي مَوْكِبٍ عَظِيمٍ، وَهَيْئَةٍ جَمِيلَةٍ، فَهَجَمَ عَلَيْهِ يَهُودِيٌّ يَبِيعُ الزَّيْتَ الحَار وَأَثْوَابُهُ مُلَطَّخَةٌ بِالزَّيْتِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الرَّثَاثَةِ وَالشَّنَاعَةِ، فَقَبَضَ عَلَى لِجَامِ بَغْلَتِهِ وَقَالَ: يَا شَيْخَ الإِسْلَام تَزْعُمُ أَنَّ نَبِيَّكُمْ قَالَ: «الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ».

فَأَيُّ سِجْنٍ أَنْتَ فِيهِ؟! وَأَيُّ جَنَّةٍ أَنَا فِيهَا؟! فَقَالَ: أَنَا بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعَدَّ اللهُ لِي فِي الآخِرَةِ مِنَ النَّعِيمِ كَأَنِّي الآنَ فِي السِّجْنِ، وَأَنْتَ بِالنِّسْبَةِ لِمَّا أَعَدَّ لَكَ فِي الآخِرَةِ مِنَ العَذَابِ الأَلِيمِ كَأَنَّكَ فِي جَنَّةٍ، فَأَسْلَمَ اليَهُودِيُّ»[٢].

حِكْمَةٌ:

قِيلَ: «أَبْلَغُ العِظَاتِ النَّظَرُ إِلَى الأَمْوَاتِ».

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٥٦).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ: «فِيهِ تَفْسِيرَان صَحِيحَان:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ المُؤْمِنَ قَيَّدَهُ إِيمَانُهُ عَنِ المَحْظُورَات وَالكَافِر مُطْلَق التَّصَرُّف.

الثَّانِي: أَنَّ ذَلِكَ بِاعْتِبَارِ العَوَاقِبِ فَالمُؤْمِنُ لَوْ كَانَ أَنْعَمَ النَّاسِ فَذَلِكَ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَآلِهِ فِي الجَنَّةِ كَالسِّجْنِ وَالكُفَّار عَكْسه فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ أَشَدَّ النَّاسِ بُؤْسًا فَذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى النَّارِ جَنَّته» «بَدَائِع الفَوَائِد» (٣/ ٦٩٦).

(٢) «فَيْضُ القَدِير» (٣/ ٧٣٠).

النَّصِيحَةُ التَّاسِعَةُ: أَنْ يَجْعَلَ العَبْدُ الآخِرَةَ هَمَّهُ

قَـالَ الله تَعَـالَى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العَنكَبُوت].

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَأَمَّا الدَّارُ الآخِرَةُ، فَإِنَّهَا دَارُ ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ أَيْ: الحَيَاة الكَامِلَة، الَّتِي مِنْ لَوَازِمِهَا أَنْ تَكُونَ أَبْدَان أَهْلِهَا فِي غَايَةِ القُوَّة، وَقِوَاهُمْ فِي غَايَةِ الشِدَّة، لِأَنَّهَا أَبْدَان وَقِوَى خُلِقَت لِلحَيَاة، وَأَنْ يَكُون مَوْجُودًا فِيهَا كُلّ مَا تَكْمُلُ بِهِ الحَيَاة، وَتَتِمُّ بِهِ اللَّذَات، مِنْ مُفْرِحَاتِ القُلُوب، وَشَهَوَات الأَبْدَان، مِنَ المَآكِل، وَالمَشَارِب، وَالمَنَاكِح، وَغَيْرِ ذَلِك، مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَت، وَلَا أُذُن سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَر»[(١)].

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ»[(٢)].

---

(١) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص٦٣٥).

(٢) رَوَاهُ التِّرمِـذِي (٢٤٦٥)، وَابْـنُ مَاجَـه (٤١٠٥)، وَحَسَّـنَهُ الأَلْبَـانِي فِـي «السِّلْسِـلَة الصَّحِيحَة» (٩٤٩).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِذَا أَصْبَحَ العَبْدُ وَأَمْسَى وَلَيْسَ هَمُّهُ إِلَّا الله وَحْدَه تَحَمَّلَ الله سُبْحَانَهُ حَوَائِجَهُ كُلَّهَا، وَحَمَلَ عَنْهُ كُلَّ مَا أَهَمَّهُ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ لِمَحَبَّتِهِ، وَلِسَانَه لِذِكْرِهِ، وَجَوَارِحَهِ لِطَاعَتِهِ، وَإِنْ أَصْبَحَ وَأَمْسَى وَالدُّنْيَا هَمّه حَمَّلَهُ الله هُمُومَهَا وَغُمُومَهَا وَأَنْكَادَهَا، وَوَكَلَهُ إِلَى نَفْسِه، فَشَغَلَ قَلْبَهُ عَنْ مَحَبَّتِهِ بِمَحَبَّةِ الخَلْقِ، وَلِسَانَهُ عَنْ ذِكْرِهِ بِذِكْرِهِمْ، وَجَوَارِحَهُ عَنْ طَاعَتِهِ بِخِدْمَتِهِمْ وَأَشْغَالِهِمْ فَهُوَ يَكْدَحُ كَدْحَ الوَحْشِ فِي خِدْمَةِ غَيْرِهِ»[1].

قِصَّةٌ مُؤَثِّرَةٌ:

«عَنْ فَاطِمَةَ رَحِمَهَا الله امْرَأَة عُمَر بْنِ عَبْدِ العَزِيز رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ فِي مُصَلَّاه يَدُهُ عَلَى خَدِّهِ، سَائِلَة دُمُوعه، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِين! أَلِشَيْءٍ حَدَث؟

قَالَ: يَا فَاطِمَة! إِنِّي تَقَلَّدْتُ أَمْرَ أُمَّةِ مُحَمَّد ﷺ، فَتَفَكَّرْتُ فِي الفَقِيرِ الجَائِع، وَالمَرِيضِ الضَّائِع، وَالعَارِي المَجْهُود، وَالمَظْلُوم المَقْهُور، وَالغَرِيبِ المَأْسُور، وَالكَبِيرِ وَذِي العِيَال فِي أَقْطَارِ الأَرْض، فَعَلِمْتُ أَنَّ رَبِّي سَيَسْأَلُنِي عَنْهُمْ، وَأَنَّ خَصْمَهُمْ دُونَهُمْ مُحَمَّد ﷺ، فَخَشِيتُ أَلَا تَثْبُتَ لِي حُجَّة عِنْد خُصُومَتِه، فَرَحِمْتُ نَفْسِي فَبَكَيْت»[2].

---

(١) «الفَوَائِد» (ص ٨٤).

(٢) «سِيَرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاء» (٥/ ١٣١).

فَلْنَجْعَلْ تَفْكِيرَنَا وَهَمَّنَا لِمَا يَنْتَظِرُنَا مِنْ مَوْتٍ وَقُبُور، وَبَعْثٍ وَنُشُور..

قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

[ ].

مَوْعِظَةٌ بَلِيغَةٌ:

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«يَجِدُ الطَّائِعُ الثَّوَاب وَيَجِدُ الفَاسِقُ العَذَاب، يَجِدُ المُؤْمِنُ لَذَّةَ الوِصَال بِالنَّظَرِ إِلَى الكَبِير المُتَعَال فِي دَارِ الخُلْدِ وَالجَلَال، وَيَجِدُ الكَافِرُ العَذَابَ وَالنَّكَال، وَالسَّلَاسِلَ وَالأَغْلَال، وَالجَحِيمَ وَالخَبَال، وَفَظَاعَةَ الأَهْوَال.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾: يَجِدُ المُؤْمِنُ النَّعِيمَ وَالكَرَامَة، وَالأَمْنَ فِي القِيَامَة، وَالعَافِيَةَ وَالسَّلَامَة، وَالحُلُولَ فِي دَارِ المُقَامَة، وَيَجِدُ الكَافِرُ الخِزْيَ وَالنَّدَامَة، وَالعَذَابَ وَالمَلَامَة.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾: يَجِدُ المُؤْمِنُ الدَّرَجَات، وَيَجِدُ الكَافِرُ العُقُوبَات، يَجِدُ المُؤْمِنُ السُّرُور وَيَجِدُ الفَاجِرُ الثُّبُور، يَجِدُ المُؤْمِنُ النَّعِيم وَالخُلُود وَيَجِدُ الفَاجِرُ عَذَابًا غَيْر مَرْدُود، وَيَجِدُ المُؤْمِنُ مَا قَدَّمَ مِنَ الإِحْسَان فِي دَرَجَاتِ الجِنَان فِي جِوَار الرَّحْمَن مَعَ الخَيْرَات الحِسَان، وَيَجِد الفَاجِر مَا عَمِلَ مِنَ العِصْيَان فِي سَمُوم النِّيرَان فِي جِوَار الشَّيْطَان مَعَ الذُّلِّ وَالهَوَان.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾: فِي يَوْمٍ هَائِلٍ عَظِيم تَكْثُرُ فِيهِ الغُمُومُ وَتَعْظُمُ

فِيه الهُمُوم، وَيَفْصِلُ الرَّبُّ بَيْنَ عِبَادِهِ وَهُوَ الحَيُّ القَيُّوم.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾: يَوْمَ تَنْدَمُ عَلَى القَبَائِح، وَتَتَأَسَّفُ عِنْدَ مُعَايَنَةِ الفَضَائِح، وَتَجِدُ الأَعْمَالَ فِي الصَّحَائِفِ الصَّحَائِح..» [1].

حِكْمَةٌ:

قِيلَ: «فَكِّرْ في المَعَاد تَنْسَ أُمُورَ العِبَاد».

حِكْمَةٌ:

قِيلَ: «العُمُرُ فِي الدُّنْيَا قَلِيل، وَيَوْمَ القِيَامَةِ إِمَّا عَزِيزٌ أَوْ ذَلِيل».



(١) «بُسْتَانُ الوَاعِظِين» (ص٩٣).

النَّصِيحَةُ العَاشِرَةُ: أَنْ يَتَذَكَّرَ عَذَابَ الآخِرَةِ ونَعِيمَ الجَنَّةِ

قَالَ الله تَعَالَى فِي غَيْرِ مَا آيَة يَصِفُ عَذَابَ الآخِرَة:

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ ﴾[الرَّعد].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾[طه].

﴿وَلَعَذَابُ أَكْبَرُ﴾[الزمر].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[فصلت].

إِنَّهُ وَعِيدٌ شَدِيد، وَتَهْدِيدٌ أَكِيد تَنْخَلِعُ لَهُ القُلُوب.. كُلُّ كَلِمَةٍ إِلَّا وَهِيَ أَرْهَبُ مِنْ أُخْتِهَا: ﴿ ﴾، ﴿أَشَدُّ ﴾ ﴿وَأَبْقَىٰ ﴾، ﴿أَكْبَرُ ﴾، ﴿أَخْزَىٰ ﴾.. فَاللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ..

وَلِهَذَا صَدَقَ مَنْ قَال: «كُلُّ نِعْمَةٍ دُونَ الجَنَّةِ فَانِيةٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَة».

فَإِذَا أَيْقَنَ بِهَذَا الأَخُ المَهْمُوم: عَلِمَ أَنَّ الهَمَّ مَهْمَا عَظُم فَلَنْ يَكُونَ كَعَذَابِ النَّارِ الَّذِي هُوَ الخُسْرَانُ المُبِين...

فَتَأَمَّلْ عَبْدَ الله فِي حَالِ النَّار، وَحَالِ أَهْلِ النَّار..تَجِدُ مُصِيبَتَكَ تَصْغُرُ فِي عَيْنَيْك قَبْلَ أَنْ تَصْغُرَ فِي قَلْبِكَ وَفُؤَادِك..

«تَأَمَّلْ فِي حَالِ الخَلَائِقِ وَقَدْ قَاسَوْا مِنْ دَوَاهِي القِيَامَةِ مَا قَاسُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي كُرَبِهَا وَأَهْوَالِهَا وُقُوفًا يَنْتَظِرُونَ حَقِيقَةَ أَنْبَائِهَا، وَتَشْفِيعَ شُفَعَائِهَا، إِذْ أَحَاطَتْ

بِالْمُجْرِمِينَ ظُلُمَاتٌ ذَاتُ شُعَب وَأَظَلَّتْ عَلَيْهِمْ نَارٌ ذَاتُ لَهَب، وَسَمِعُوا لَهَا زَفِيرًا وَجَرْجَرَةً تُفْصِحُ عَنْ شِدَّةِ الغَيْظِ وَالغَضَب، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَيْقَنَ الْمُجْرِمُونَ بِالعَطَب، وَجَثَّتْ الأُمَمُ عَلَى الرُّكَب، حَتَّى أَشْفَقَ البُرَآءُ مِنْ سُوءِ الْمُنْقَلَب، وَخَرَجَ الْمُنَادِي مِنَ الزَّبَانِيَةِ قَائِلًا: أَيْنَ فُلَان بْنُ فُلَان الْمُسَوِّفُ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا بِطُولِ الأَمَل، الْمُضَيِّعُ عُمُره فِي سُوءِ العَمَل، فَيُبَادِرُونَهُ بِمَقَامِعَ حَدِيدٍ وَيَسْتَقْبِلُونَهُ بِعَظَائِمِ التَّهْدِيد، وَيَسُوقُونَهُ إِلَى العَذَابِ الشَّدِيد، وَيُنَكِّسُونَهُ فِي قَعْرِ الجَحِيم، وَيَقُولُونَ لَهُ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ۝٤٩﴾ [الدخان]، فَأُسْكِنُوا دَارًا ضَيِّقَةَ الأَرْجَاء مُظْلِمَةَ الْمَسَالِكِ مُبْهَمَة الْمَهَالِك، يَخْلُدُ فِيهَا الأَسِير وَيُوقَدُ فِيهَا السَّعِير، شَرَابُهُمْ فِيهَا الحَمِيم وَمُسْتَقَرُّهُمْ الجَحِيم، الزَّبَانِيَةُ تَقْمَعُهُمْ وَالهَاوِيَةُ تَجْمَعُهُمْ، أَمَانِيُّهُم فِيهَا الهَلَاك وَمَا لَهُمْ مِنْهَا فِكَاك، قَدْ شُدَّت أَقْدَامُهُمْ إِلَى النَّوَاصِي وَاسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ مِنْ ظُلْمَةِ المَعَاصِي، يُنَادَوْنَ مِنْ أَكْنَافِهَا وَيَصِيحُونَ فِي نَوَاحِيهَا وَأَطْرَافِهَا: يَا مَالِكُ قَدْ حَقَّ عَلَيْنَا الوَعِيد، يَا مَالِكُ قَدْ أَثْقَلَنَا الحَدِيد، يَا مَالِكُ قَدْ نَضِجَتْ مِنَّا الجُلُود، يَا مَالِكُ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا لَا نَعُود، فَتَقُولُ الزَّبَانِيَةُ: هَيْهَات لَاتَ حِينَ أَمَان وَلَا خُرُوجَ لَكُمْ مِنْ دَارِ الهَوَان، فَاخْسَؤُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون، وَلَوْ أُخْرِجْتُمْ مِنْهَا لَكُنْتُمْ إِلَى مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ تَعُودُون، فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقْنُطُون وَعَلَى مَا فَرَّطُوا فِي جَنْبِ الله يَتَأَسَّفُون، وَلَا يُنْجِيهِمْ النَّدَم وَلَا يُغْنِيهِمْ الأَسَف، بَلْ يُكَبُّونَ عَلَى وُجُوهِهِم مَغْلُولِين، النَّارُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَالنَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَالنَّارُ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَالنَّارُ عَنْ شَمَائِلِهِمْ، فَهُمْ غَرْقَى فِي النَّار: طَعَامُهُمْ نَار، وَشَرَابُهُمْ نَار، وَلِبَاسُهُمْ نَار، وَمِهَادُهُمْ نَار، فَهُمْ بَيْنَ مُقَطَّعَاتِ النِّيرَان

وَسَرَابِيل القَطِرَان، وَضَرْبِ المَقَامِع وَثِقَلِ السَّلَاسِل، فَهُمْ يَتَجَلْجَلُونَ فِي مَضَايِقِهَا، وَيَتَحَطَّمُونَ فِي دَرَكَاتِهَا، وَيَضْطَرِبُونَ بَيْنَ غَوَاشِيهَا، تَغْلِي بِهِمْ النَّار كَغَلْيِ القُدُور، وَيَهْتِفُونَ بِالوَيْلِ وَالعَوِيل، وَمَهْمَا دَعُوا بِالثُّبُور صُبَّ ﴿مِن رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾، تُهْشَمُ بِهَا جِبَاهُهُمْ فَيَتَفَجَّرُ الصَّدِيدُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، وَتَتَقَطَّعُ مِنَ العَطَشِ أَكْبَادُهُمْ، وَتَسِيلُ عَلَى الخُدُودِ أَحْدَاقُهُم، وَيَسْقُطُ مِنَ الوَجَنَاتِ لُحُومُهَا وَيَتَمَعَّطُ مِنَ الأَطْرَافِ شُعُورُهَا بَلْ جُلُودُهَا، وَكُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بُدِّلُوا جُلُودًا غَيْرَهَا..»[(١)].

أَمَّا الجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا فَحَدِّثْ وَلَا حَرَج: «مُشْتَمِلَةٌ عَلَى الغُرَفِ العَالِيَات، وَالسُّرُرِ المَصْفُوفَات، وَالقُطُوفِ الدَّانِيَات، وَالفُرُشِ المُرْتَفِعَات، وَالحِسَانِ الخَيِّرَات، وَالفَوَاكِه المُتَنَوِّعَات، وَالمَآكِلِ المُشْتَهِيَات، وَالمَشَارِبِ المُسْتَلَذَّات، وَالنَّظَرِ إِلَى خَالِقِ الأَرْضِ وَالسَّمَوَات، وَهُمْ فِي ذَلِكَ خَالِدُون، لَا يَمُوتُون وَلَا يَهْرَمُون وَلَا يَمْرَضُون، وَلَا يَنَامُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُون، وَلَا يَبْصُقُون وَلَا يَتَمَخَّطُون، إِنْ هُوَ إِلَّا رَشْحُ مِسْكٍ يَعْرَقُون»[(٢)].

لَا يَبْغُون عَنْها حِوَلا، وَلَا يَطْلُبُون مِنْها بَدَلا، لِأَنَّهُمْ مَهْمَا تَمَنَّوْه، أَدْرَكُوه، وَمَهْمَا أَرَادُوه، وَجَدُوه[(٣)].

---

(١) «مَوْعِظَةُ المُؤْمِنِين» (ص٤٨٣).

(٢) «تَفْسِيرُ القُرْآنِ العَظِيم» (٤/ ٣١٥).

(٣) «تَيْسِيرُ الكَرِيمِ الرَّحْمَن» (ص١٠٠).

أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَمَهْمَا بَلَغَ نَعِيمُ العَبْدِ فَمَآلُهُ إِلَى الزَّوَالِ وَالنِّسْيَان، وَكَذَا الهُمُومُ وَالغُمُوم وَالأَحْزَان، وَلَا يَجِدُ فِيهَا الإِنْسَان إِلَّا مَا قَدَّمَتْ يَدَاه، فَإِنْ خَيْرًا فَخَيْرًا، وَإِنْ شَرًّا فَشَرًّا.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟

هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟

هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟

فَيَقُولُ: لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤُسٌ قَطُّ وَلاَ رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[1].

فَالعَبْدُ الأَوَّلُ: كَانَ غَافِلًا جَاهِلًا مُفَرِّطًا فِي جَنْبِ الله، وَإِنْ كَانَ مُنَعَّمًا فِي بَدَنِهِ وَثِيَابِهِ وَمَسْكَنِهِ وَمَرْكَبِهِ وَأَهْلِهِ حَتَّى صَارَ وَصْفُهُ (بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا) وَلَكِنْ بِصَبْغَةٍ فِي النَّار يَنْسَى نَعِيمَهُ.. يَنْسَى مَالَهُ.. وَأَيَّامَهُ.. ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠].

أَمَّا العَبْدُ الثَّانِي: فَكَانَ عَبْدًا فَقِيرًا أَزْرَى بِهِ الْفَقْرُ، وَوَضَعَ مِنْ دَرَجَتِهِ، وَأَنْزَلَ مِنْ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٨٠٧).

رُتْبَتِهِ، وَحَقَّرَ شَأْنَهُ، وَصَغَّرَ قَدْرَهُ، وَأَسْقَطَ جَاهَهُ، وَصَيَّرَهُ وَتِداً بِقَاعٍ[١].

فَبَلَغَ دَرَجَةً كَبِيرَةً مِنَ الفَقْرِ وَالشِدَّة بَلْ صَارَ وَصْفُهُ (بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا).. فَهَذَا فِي نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَلَكِنَّهُ عَاشَ مُطِيعًا لِرَبِّهِ مُؤَمِّلًا لِقُرْبِهِ مُسَارِعًا فِي الخَيْرَات، صَابِرًا عَلَى البَلَايَا وَالرَّزَايَا، فَكَانَ مَصِيرُهُ الجَنَّة دَار المُتَّقِين الَّتِي يَتَمَنَّاهَا الصَّالِحُون وَيَعْمَلُ لِتَحْصِيلِهَا المُجْتَهِدُون بِرَحْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْل..

فَإِذَا اسْتَحْضَرَ المَهْمُوم هَذَا وَذَاك أَوْرَثَهُ ذَلِكَ شُكْرًا لله، وَحُبًّا لله، وَتَعْظِيمًا لله ذِي الجَلَال وَالجَمَال وَالكَمَال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وَقْفَةٌ:

أَعْظَمُ السَّعَادَةِ وَالسُّرُور، وَالغِبْطَةِ وَالحُبُور يَوْمَ تَقُولُ بِإِذْنِ الله:

﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾.

وَأَكْبَرُ الوَيْلِ وَالثُّبُور يَوْمَ يَقُول وَالعِيَاذُ بِالله:

﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾



(١) «نُجْعَةُ الرَّائِد» (ص ٢١٧).

النَّصِيحَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ الأَسْبَابِ الجَالِبَةِ لِلْهُمُوم

إِنَّ الكَثِيرَ مِنَ المَهْمُومِين والمَحْزُونِين إِنَّمَا سَبَبُ هَمِّه حَدَثٌ مَضَى وَانْقَضَى، أَوْ حَادِثَةٌ لَمْ يَتَوَقَّعْ حُلُولَهَا وَحُدُوثَهَا، فَأَصْبَحَ سَبَبًا فِي تَنْغِيصِ عَيْشِهِ وَمَعِيشَتِهِ؛ بَلْ وَحَيَاتِه كُلِّهَا.

قَالَ العَلَّامَةُ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمِنَ الأَسْبَابِ المُوجِبَةِ لِلسُّرُور وَزَوَالِ الهَمِّ وَالغَمِّ:

السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ الأَسْبَابِ الجَالِبَةِ لِلْهُمُومِ، وَفِي تَحْصِيلِ الأَسْبَابِ الجَالِبَةِ لِلسُّرُورِ، **وَذَلِكَ بِنِسْيَانِ مَا مَضَى عَلَيْهِ مِنَ المَكَارِهِ الَّتِي لَا يُمْكِنُهُ رَدُّهَا**، وَمَعْرِفَته أَنَّ اشْتِغَالَ فِكْرِهِ فِيهَا مِنْ بَابِ العَبَثِ وَالمُحَال، وَأَنَّ ذَلِكَ حُمْقٌ وَجُنُون، فَيُجَاهِدُ قَلْبَهُ عَنِ التَّفَكُّرِ فِيهَا وَكَذَلِكَ يُجَاهِدُ قَلْبَهُ عَنِ قَلَقِهِ لِمَا يَسْتَقْبِلُهُ، مِمَّا يَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَقْرٍ أَوْ خَوْفٍ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ المَكَارِهِ الَّتِي يَتَخَيَّلُهَا فِي مُسْتَقْبَلِ حَيَاتِهِ.

فَيَعْلَمُ أَنَّ الأُمُورَ المُسْتَقْبَلَةِ مَجْهُولٌ مَا يَقَعُ فِيهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ وَآمَالٍ وَآلَامٍ، وَأَنَّهَا بِيَدِ العَزِيزِ الحَكِيم، لَيْسَ بِيَدِ العِبَادِ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا السَّعْيُ فِي تَحْصِيلِ خَيْرَاتِهَا، وَدَفْعِ مَضَرَّاتِهَا، وَيَعْلَمُ العَبْدُ أَنَّهُ إِذَا صَرَفَ فِكْرَهُ عَنْ قَلَقِهِ مِنْ أَجْلِ مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ، وَاتَّكَلَ عَلَى رَبِّهِ فِي إِصْلَاحِهِ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ فِي ذَلِك، إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ

اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ وَصَلُحَتْ أَحْوَالُهُ، وَزَالَ عَنْهُ هَمُّهُ وَقَلَقُهُ»[١].

وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الحَدِيثِ عَنْ أَمْرٍ مُهِمٍّ جِدًّا وَهُوَ أَنَّ الكَثِيرَ مِنْ هُمُومِنَا إِنَّمَا هِيَ أَوْهَامٌ فَحَسْب، فَكَمْ شَغَلَتْنَا مِنْ أُمُورٍ كُنَّا نَنْتَظِرُهَا بَلْ أَرَّقَتْنَا وَأَبْكَتْنَا وَهِيَ لَمْ تَقَعْ أَصْلًا؛ فَإِذَا بِهَا تَمُرُّ عَلَيْنَا وَبِنَا بَرْدًا وَسَلَامًا.

قِيلَ: «لَا تَحْمَلْ هَمًّا لَمْ يَنْزِلْ، وَلَا تَطْلُبْ الجَزَاءَ عَلَى مَا لَمْ تَعْمَل».

وَ قِيلَ كَذَلِك: «مَنْ يَتْرُكْ نَفْسَهُ أَسِيرَ المَاضِي، يَفْقِدُ المُسْتَقْبَل».

قَالَ العَلَّامَةُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ:

«وَمِمَّا يُدْفَعُ بِهِ الهَمُّ وَالقَلَقُ:

اجْتِمَاعُ الفِكْرِ كُلِّه عَلَى الاهْتِمَامِ بِعَمَلِ اليَوْمِ الحَاضِرِ، وَقَطْعِهِ عَنْ الاهْتِمَامِ فِي الوَقْتِ المُسْتَقْبَلِ، وَعَنِ الحُزْنِ عَلَى الوَقْتِ المَاضِي، وَلِهَذَا اسْتَعَاذَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الهَمِّ وَالحُزْن، فَلَا يَنْفَعُ الحُزْنُ عَلَى الأُمُورِ المَاضِيَة الَّتِي لَا يُمْكِنُ رَدُّهَا وَلَا اسْتِدْرَاكُهَا وَقَدْ يَضُرُّ الهَمُّ الَّذِي يَحْدُثُ بِسَبَبِ الخَوْفِ مِنَ المُسْتَقْبَلِ، فَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَكُونَ ابْنَ يَوْمِهِ، يَجْمَعُ جِدَّهُ وَاجْتِهَادَهُ فِي إِصْلَاحِ يَوْمِهِ وَوَقْتِهِ الحَاضِر، فَإِنَّ جَمَعَ القَلْبِ عَلَى ذَلِكَ يُوجِبُ تَكْمِيلَ الأَعْمَال، وَيَتَسَلَّى بِهِ العَبْدُ عَنِ الهَمِّ وَالحُزْن.

وَالنَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَعَا بِدُعَاءٍ أَوْ أَرْشَدَ أُمَّتَهُ إِلَى دُعَاءٍ فَإِنَّمَا يَحُثُّ مَعَ الاسْتِعَانَةِ بِالله وَالطَّمَعِ فِي فَضْلِهِ عَلَى الجِدِّ وَالاجْتِهَادِ فِي التَّحَقُّقِ لِحُصُولِ مَا يَدْعُو

---

(١) «الوَسَائِلُ المُفِيدَة لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَة» (ص٢٠).

بِحُصُولِهِ، وَالتَّخَلِّي عَمَّا كَانَ يَدْعُو لِدَفْعِهِ لِأَنَّ الدُّعَاءَ مُقَارِنٌ لِلْعَمَلِ، فَالعَبْدُ يَجْتَهِدُ فِيمَا يَنْفُعُهُ فِي الدِّين وَالدُّنْيَا، وَيَسْأَلُ رَبَّهُ نَجَاحَ مَقْصَدِهِ، وَيَسْتَعِينُهُ عَلَى ذَلِكَ، كَمَا قَالَ ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ مُسْلِم[1].

فَجَمَعَ ﷺ بَيْنَ الأَمْرِ بِالحِرْصِ عَلَى الأُمُورِ النَّافِعَةِ فِي كُلِّ حَال، وَالاسْتِعَانَةِ بِالله وَعَدَمِ الانْقِيَادِ لِلْعَجْزِ الَّذِي هُوَ الكَسَلُ الضَّار، وَبَيْنَ الاسْتِسْلَامِ لِلْأُمُورِ المَاضِيَة النَّافِذَة، وَمُشَاهَدَةِ قَضَاءِ الله وَقَدَرِه.

وَجَعَلَ الأُمُورَ قِسْمَيْنِ:

قِسْمًا يُمْكِنُ العَبْدُ السَّعْي فِي تَحْصِيلِهِ أَوْ تَحْصِيلِ مَا يُمْكِنُ مِنْهُ، أَوْ دَفْعِهُ أَوْ تَخْفِيفِهُ فَهَذَا يُبْدِي فِيهِ العَبْدُ مَجْهُودَهُ وَيَسْتَعِينُ بِمَعْبُودِهِ.

وَقِسْمًا لَا يُمْكِنُ فِيهِ ذَلِك، فَهَذَا يَطْمَئِنُّ لَهُ العَبْدُ وَيَرْضَى وَيُسَلِّم، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مُرَاعَاة هَذَا الأَصْلِ سَبَبٌ لِلْسُّرُورِ وَزَوَالِ الهَمِّ وَالغَمِّ»[2].

كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَرْشَدَ إِلَى مُقَوِّمَاتِ السَّعَادَةِ وَإِلَى أَعْظَمِ النِّعَمِ وَلَكِنْ بِشَرْطٍ مَعَ القَنَاعَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي

---

(١) بِرَقْم: (٢٦٦٤).

(٢) «الوَسَائِلُ المُفِيدَة لِلْحَيَاةِ السَّعِيدَة» (ص١٦).

جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[(١)].

مَهْمَا كَانَ الإِنْسَانُ آمِنـًا فِي سِرْبِه، مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، وَلَهُ قُوتُ يَوْمِه، فَحُزْنُهُ وَغَمُّهُ بِسَبَبِ أَمْرِ الدُّنْيَا أَمَارَةُ نُقْصَانِهِ وَحَمَاقَتِه، فَإِنَّ غَمَّهُ لَيْسَ يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ تَأَسُّفًا عَلَى ماضٍ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مُسْتَقْبَلٍ، أَوْ حُزْنًا عَلَى سَبَبٍ حَاضِرٍ فِي الحَال.

فَإِنْ كَانَ عَلَى فَائِتٍ فَالعَاقِلُ بَصِيرٌ بِأَنَّ الجَزَعَ عَلَى مَا فَاتَ لَا يَلُمُّ شَعَثًا، وَلَا يَرِمُ مَا انْتَكَث، وَمَا لَا حِيلَةَ لَهُ، فَالغَمُّ عَلَيْه خَرَقٌ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحَدِيد].

وَقَالَ الشَّاعِرُ: وَهَلْ جَزَعٌ مُجْدٍ عَلَيَّ فَأَجْزَعَا.

وَإِنْ كَانَ حَاضِرًا، فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ حَسَداً لِوُصُولِ نِعْمَةٍ إِلَى مَنْ يَعْرِفُهُ، أَوْ يَكُونُ حُزْنًا لِلْفُقْرِ، وَفُقْدَانِ المَالِ وَالجَاه، وَأَسْبَاب الدُّنْيا.

وَسَبَبُ هَذَا الجَهْلِ بِغَوَائِلِ الدُّنْيَا وَسُمُومِهَا، وَلَوْ عَرَفَهَا مَعْرِفَتَهَا لَشَكَرَ الله تَعَالَى عَلَى كَوْنِهِ مِنَ المُخَفَّفِين، دُونَ المُثَقَّلِين، وَلَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَعْشَقُهُ، لَمْ يَعْشِقْهُ، إِذْ يَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا حَمَّالَةُ المَصَائِب، كَدِرَةُ المَشَارِب، تُورِثُ لِلْبَرِيَّة أَنْوَاعَ البَلِيَّة، مَعَ كُلِّ لُقْمَةٍ غَصْمَة، فَمَا أَحَدٌ فِيهَا، إِلَّا وَهُوَ فِي كُلِّ حَالٍ غَرَضٌ لِأَسْهُمٍ ثَلَاثَة، سَهْمُ نِقْمَة، وَسَهْمُ رَزِيَّة، وَسَهْمُ مَنِيَّة:

تُنَاضِلُهُ الأَوْقَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

---

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِي (٢٣٤٦)، وَابْنُ مَاجه (٤١٤١)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٦٠٤٢).

فَتُخْطِئُـــــهُ طَـــوْراً وَطَـــوْراً تُصِــــيبُهُ

فَمَنْ كَانْ مُعَتِبراً بِمَا يَتَجَدَّدُ كُلّ يَوْم مِنْ ارْتِجَاعِ النِّعَمِ مِنْ أَرْبَابِهَا، وَحُلُولِ القَوَارِعِ بِأَصْحَابِهَا، وَشِدَّةِ اغْتِمَامِهِمْ بِفَقْدِهَا، لَمْ يَتَأَسَّفْ عَلَى فَوَاتِهَا.

وَلِذَلِكَ قِيلَ لِبَعْضِهِمْ: لِمَ لَا تَغْتَم؟ قَالَ: «لِأَنِّي لَا أَقْتَنِي مَا يَغُمُّنِي فَقْدُهُ».

وَمَهْمَا أَمْعَن الإِنْسَانُ فِكْرَهُ فِي غَفْلَةِ أَرْبَابِ الدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ وَكَثْرَةِ مَصَائِبِهِمْ فِيهَا، تَسَلَّى عَنْهَا، وَهَانَ عَلَيْهِ تَرْكُهَا[1].

أَفَـــادَتْنِي القَنَاعَـــةُ كُـــلَّ عِـــزٍّ
وَهَـــلْ عِـــزٌّ أَعَـــزٌّ مِـــنَ القَنَاعَـــهْ

فَصَــــيِّرْهَا لِنَفْسِـــكَ رَأْسَ مَـــالٍ
وصَـــيِّرْ بَعْـــدَهَا التَّقْـــوَى بِضَـــاعَهْ

تَنَـــلْ عِـــزّاً وتَغْنَـــى عَـــنْ لَئِـــيمٍ
وتَرْحَـــلْ لِلْجِنَـــانِ بِصَـــبْرِ سَـــاعَهْ

حِكْمَةٌ:

قِيلَ: «القَنَاعَةُ: الرِّضَا بِاليَسِير، وَإِنْفَاقِ الكَثِير».

حِكْمَةٌ:

قِيلَ: «الصَّبْرُ مَطِيَّةٌ لَا تَكْبُو، وَالْقَنَاعَةُ سَيْفٌ لَا يَنْبُو».

---

(١) «مِيزَانُ العَمَل» (ص٦٠).

عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَاب:

«عَنِ القَاسِمِ بْنِ مُخَيْمِرَة رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ: لَمْ يَجْتَمِعْ عَلَى مَائِدَتِي لَوْنَانِ مِنْ طَعَامٍ قَطّ، وَمَا أَغْلَقْتُ بَابِي قَطُّ وَلِي خَلْفَهُ هَمٌّ»[١].



(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٢٠٣).

النَّصِيحَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَة: انْظُر إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْك

احْرِصْ أَخِي الحَبِيب دَائِمًا وَأَبَدًا أَنْ تَأْخُذَ بِهَذِهِ النَّصِيحَةِ الذَّهَبِيَّة مِنْ خَيْرِ البَرِيَّة مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ﷺ إِذْ قَالَ: «**انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»[1].

«يَا لَهَا مِنْ وَصِيَّةٍ نَافِعَة، وَكَلِمَةٍ شَافِيَة وَافِيَة، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى الحَثِّ عَلَى شُكْرِ الله بِالاعْتِرَافِ بِنِعَمِه، وَالتَّحَدُّثِ بِهَا، وَالاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى طَاعَةِ المُنْعِم، وَفِعْلِ جَمِيعِ الأَسْبَابِ المُعِينَةِ عَلَى الشُّكْرِ.

وَقَدْ أَرْشَدَ ﷺ إِلَى هَذَا الدَّوَاءِ العَجِيبِ، وَالسَّبَبِ القَوِيِّ لِشُكْرِ نِعَمِ الله.

وَهُوَ أَنْ يَلْحَظَ العَبْدُ فِي كُلِّ وَقْتٍ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي العَقْلِ وَالنَّسَبِ وَالمَالِ وَأَصْنَافِ النِّعَمِ.

فَمَتَى اسْتَدَامَ هَذَا النَّظَرَ اضْطَرَّه إِلَى كَثْرَة شُكْرِ رَبِّه وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ.

يَنْظُرُ إِلَى خَلْقٍ كَثِير مِمَّنْ سُلِبُوا عُقُولَهُم، فَيَحْمَدُ رَبَّهُ عَلَى كَمَالِ العَقْل، وَيُشَاهِدُ عَالَمًا كَثِيرًا لَيْسَ لَهُمْ قُوتٌ مُدَّخَر، وَلَا مَسَاكِنُ يَأْوُونَ إِلَيْهَا، وَهُوَ مُطْمَئِنٌّ فِي مَسْكَنِه، مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ رِزْقه.

وَيَرَى خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ ابْتُلُوا بِأَنْوَاعِ الأَمْرَاضِ، وَأَصْنَافِ الأَسْقَامِ وَهُوَ مُعَافى مِنْ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤٩٠)، وَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٩٦٣)، وَاللَّفْظُ لَه.

ذَلِك، مُسَرْبَل بِالعَافِيَة.

وَيُشَاهِدُ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ ابْتُلُوا بِبَلَاءٍ أَفْظَع مِنْ ذَلِك، بِانْحِرَافِ الدِّين، وَالوُقُوعِ فِي قَاذُورَاتِ المَعَاصِي، وَاللهُ قَدْ حَفِظَهُ مِنْهَا أَوْ مِنْ كَثِيرٍ مِنْهَا.

وَيَتَأَمَّلُ أُنَاسًا كَثِيرِين قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ الهَمُّ، وَمَلَكَهُمْ الحُزْنُ وَالوَسْاوَس، وَضِيق الصَّدْر، ثُمَّ يَنْظُر إِلَى عَافِيَتِهِ مِنْ هَذَا الدَّاء، وَمِنَّة اللهِ عَلَيْهِ بِرَاحَةِ القَلْبِ، حَتَّى رُبَّمَا كَانَ فَقِيرًا يَفُوقُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ - نِعْمَة القَنَاعَة وَرَاحَة القَلْب - كَثِيرًا مِنَ الأَغْنِيَاء»[1].

قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ:

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَة عَنْ أَبِيه: وَقَعَتْ الأَكَلَةُ فِي رِجْلِهِ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَا نَدْعُو لَكَ طَبِيبًا؟

قَالَ: إِنْ شِئْتُمْ.

فَجَاءَ الطَّبِيبُ فَقَالَ: أَسْقِيكَ شَرَابًا يَزُولُ فِيهِ عَقْلُكَ.

فَقَالَ: امْضِ لِشَأْنِكَ مَا ظَنَنَتُ أَنَّ خَلْقًا يَشْرَبُ شَرَابًا وَيَزُولُ فِيهِ عَقْلُهُ حَتَّى لَا يَعْرِفَ رَبَّهُ.

قَالَ: فَوَضَعَ المِنْشَارَ عَلَى رُكْبَتِهِ اليُسْرَى وَنَحْنُ حَوْلَهُ فَمَا سَمِعْنَا لَهُ حَسًّا، فَلَمَّا قَطَعَهَا جَعَلَ يَقُولُ: **لَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْت، وَلَئِنْ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْت**، وَمَا

---

(١) «بَهْجَةُ قُلُوبِ الأَبْرَار» (ص٧٤) بِاخْتِصَار.

تَرَكَ حِزْبَهُ مِنَ القِرَاءَةِ تِلْكَ اللَّيْلَة»[١].

«وَأُصِيبَ عُرْوَة رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذَا السَّفَر بِابْنِهِ مُحَمَّد، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ فِي إِصْطِبْلٍ، فَلَمْ نَسْمَعْ مِنْهُ كَلِمَةً فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ بِوَادِي القُرَى قَالَ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ٦٢﴾ [الكهف].

اللَّهُمَّ كَانَ لِي بَنُون سَبْعَة فَأَخَذْتَ مِنْهُمْ وَاحِداً وَأَبْقَيْتَ لِي سِتَّةً، وَكَانَ لِي أَطْرَافٌ أَرْبَعَةٌ فَأَخَذْتَ طَرَفًا وَأَبْقَيْتَ ثَلَاثَةً، **فَإِنْ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْت، وَلَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْت**»[٢].

فَأَنْصَحُكَ وَنَفْسِي بِزِيَارَةِ المُسْتَشْفَيَات كُلَّمَا وَجَدْتَّ قَسْوَةً فِي قَلْبِك، أَوْ ازْدَادَ هَمُّك لِأَجْلِ نِعْمَةٍ لَمْ تُحَصِّلْهَا أَوْ أُمْنِيَةٍ لَمْ تُحقِّقْها، سَتَجِدُ نَفْسَكَ حَامِدًا لله، شَاكِرًا لِمَوْلَاك، وَذَلِكَ لِأَنَّ الكَثِيرَ مِنَّا - إِلَّا مَن رَّحِمَ الله - قَدْ تَشْتَاقُ نَفْسُهُ لِلنِّعَمِ المَفْقُودَة وَتَتَنَاسَى النِّعَمَ المَوْجُودَة.

قِيلَ: «العَقْلُ الكَامِلِ أَنْ تَسْتَهْوِنَ النِّقْمَة، وَتَسْتَعْظِمَ النِّعْمَة».

وقِيلَ: «مَنْ صَبَرَ نَالَ الْمُنَى، وَمَنْ شَكَرَ حَصَّنَ النُّعْمَى».

حَقِيقَةٌ:

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

«أَهْلُ البَلَاءِ هُمْ أَهْلُ المَعْصِيَةِ وَإِنْ عُوفِيَتْ أَبْدَانُهُمْ، وَأَهْلُ العَافِيَةِ هُمْ أَهْلُ الطَّاعَةِ

---

(١) «تَهْذِيبُ الكَمَال» (٢٠/ ٢٠).

(٢) «تَارِيخُ الإِسْلَام » (٦/ ٤٢٧).

وَإِنْ مَرِضَتْ أَبْدَانُهُمْ»[١].

وَفِي الخِتَام:

أَيُّهَا الأَخُ المُبَارَك احْرِصْ عَلَى تَقْوِيَةِ إِيمَانِك وَتَعَاهَدْهُ كُلَّمَا رَأَيْتَهُ قَدْ ضَعُف، فَإِنَّ لَهُ الأَثَر الكَبِير فِي إِذْهَابِ غَمِّك، وَإِزَالَةِ هَمِّك بِإِذْنِ الله.

فَقَدْ مَثَّل النَّبِيُّ ﷺ المُؤْمِنَ بالنَّخْلَةِ فقَال: «مَثَلُ المُؤْمِنِ مَثَلُ النَّخْلَةِ مَا أَخَذْتَ مِنْهَا مِنْ شَيْءٍ نَفَعَكَ»[٢].

فَالنَّخْلَةُ شَدِيدَةُ الثُّبُوتِ، كَمَا قَالَ الله تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم]، وَهَكَذَا الشَّأْنُ فِي الإِيمَانِ إِذَا رَسَخَ فِي القَلْبِ فَإِنَّهُ يَصِيرُ فِي أَشَدِّ مَا يَكُونُ مِنَ الثَّبَاتِ لَا يُزَعْزِعُهُ شَيْء، بَلْ يَكُونُ ثَابِتًا كَثُبُوتِ الجِبَالِ الرَّوَاسِي[٣].

فَالمُؤْمِنُ لَا تَهُزُّهُ رِيَاحُ الشَّهَوَات، بَلْ وَلَا أَعَاصِير الشُّبُهَات، فَزَادُهُ الإِيمَانِي وَتَعَلُّقه بِرَبِّهِ العَلَيّ يَعْصِمُهُ مِنَ الفِتَنِ كَبِيرِهَا وَصَغِيرِهَا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾[طه].

(١) «عُدَّةُ الصَّابِرِين» (ص ٦٢).

(٢) رَوَاهُ الطَّبَرَانِي فِي «المُعْجَم الكَبِير» (١٣٥١٤)، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «صَحِيح الجَامِع» (٥٨٤٨).

(٣) «الجَامِعُ لِلْبُحُوثِ وَالرَّسَائِل» (ص ٤٢٠).

فَإِلَى المُتَنَافِسِين عَلَى حُطَامِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا..وَشَهَوَاتِهَا..وَمَتَاعِهَا..

اسْتَيْقِظُوا مِنْ سُبَاتِكُمْ..وَقُومُوا مِن نَّوْمِكُمْ..

فَالدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ غَدَّارَة..دَنِيئَةٌ غَرَّارَة..

تَأَمَّلُوا فِي كَلِمَتَيْ (دِرْهَم) وَ (دِينَار)، فَالأُولَى نِهَايَتُهَا (هَم) وَالثَّانِيَةُ (نَار)..

فَمَنْ شَغَلَتْهُ الدُّنْيَا عَنِ الآخِرَة..كَانَتْ حَيَاتُهُ فِي هَمٍّ وَنِهَايَتُهُ إِلَى نَار..نَسْأَلُ الله لَنَا وَلَكُمْ العَافِيَة.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لَنَا وَلِلْمُسْلِمِين مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجـًا ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجـًا ، وَمِنْ كُلِّ بَلَاءٍ عَافِيَة.

اللَّهُمَّ فَرِّجْ هَمَّ المَهْمُومِين، وَنَفِّسْ كَرْبَ المَكْرُوبِين، وَاقْضِ الدَّيْنَ عَنِ المَدِينِين، وَاشْفِ مَرْضَانَا وَمَرْضَى المُسْلِمِين، وَارْحَمْ مَوْتَانَا وَمَوْتَى المُسْلِمِين، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين.





الفَهرِسْ


من القلب إلى القلب
نصائح وتوجيهات
لأخي
المهموم
دار الفرقان
للنشر والتوزيع